

الدروس الدينية

التى ألقاها

حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الامام الشيخ

محمد مصطفى المراغى

شيخ الجامع الأزهر

فى شهر رمضان من سنة ١٣٥٦ هـ

مطبعة الأزهر

١٩٣٨

الاذن بالنشر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد بعثه الله بدعوة الحق ، وأنزل عليه كتابا يهدى للتى هى أقوم ، ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا كبيرا .

وبعد : فقد كان لدروس التفسير التى ألقاها إمام الاسلام فى هذا العصر أستاذنا الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغى ، فى شهر رمضان سنة ١٣٥٦ ، أثر عظيم عند جميع من وصلت الى أسماعهم من أهل العلم الناضج والتدين الصادق ، فقد شاهدوا بها سنة من سنن الأئمة الصالحين من الخلفاء والأمراء فى نشر العلم وشرح الدين ، بعد أن طوتها عوامل الغفلة ، وقضت عليها مظاهر هذه الحياة .

ولم يكد يمضى شهر رمضان حتى طلب الى فضيلته كثير من أهل العلم والدين أن يأذن بطبع هذه الدروس وتوزيعها على جميع الأقطار ، ليرجع اليها الناس فى تعرف حقيقة « الاسلام » خالصة مما غشاها فشوه جمالها وكاد يخفيها ، وليتخذ منها المشتغلون بتفسير كتاب الله النهج القويم فى تصوير مقاصده وإبراز مراميه فيما يتصل بسعادة الانسان .

وقد كان لى كبير الشرف حينما تلقيت من فضيلته تكليفى القيام على تصحيح طبعها . وإنى أرجو أن يسبغ الله عليها من حسن البهجة ما يناسب الروح القوى الذى تحمله .

وأسأل الله أن يحفظ للاسلام فضيلته ، مجددا لدعوته ، معيدا لمجده ومكانته ، مؤيدا بحضرة صاحب الجلالة مولانا الملك الصالح « فاروق الأول » حرس الله ذاته ، ومكن له فى ملكه ، إنه سميع مجيب الدعاء ؟

محمود شلتوت

وكيل كلية الشريعة

الإهداء

طلب الىّ أصدقائى وجمهور من المسلمين نشر ما ألقيته من شرح بعض آى الكتاب الكريم فى شهر رمضان ، فرجعت الى ذاكرتى واستمددت منها ما ألقيته ، وتحاشيت الرجوع الى المصادر مرة أخرى ليكون المطبوع صورة مطابقة لما سمع .

ولما كانت هذه الدروس تلبية لطلب مولانا حضرة صاحب الجلالة الملك « فاروق » كان من الواجب علىّ أن أهديها الى جلالته ، وأن أجعلها مقرونة باسمه الكريم . والله سبحانه هو المقصود ، وهو الواحد المعبود .

محمد مصطفى المراغى

الدرس الأول

ألقاه فضيلته بمسجد البوصيرى بمدينة الاسكندرية

مساء يوم الخميس الثامن من شهر رمضان سنة ١٣٥٦ هـ

قال فضيلته :

بسم الله الرحمن الرحيم .

قال الله تعالى : (لَيْسَ ٱلْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ ، وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَٱلْمَلَائِكَةِ وَٱلْكِتَابِ وَٱلنَّبِيِّينَ وَآتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَامَىٰ وَٱلْمَسَاكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّائِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَاةَ وَآتَى ٱلزَّكَاةَ ، وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا ، وَٱلصَّابِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَاءِ وَٱلضَّرَّاءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ، أُولَـٰئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَـٰئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ)

(الآية : ١٧٧ من سورة البقرة)

المفردات . فضل هذه الآية . سبب نزولها . الايمان وأثره فى الانسان . تعليق وتطبيق . الايمان الناقص . الاحسان الى الجماعة . الرق وعناية الاسلام به . طريق التهذيب النفسى . الصلاة . الوفاء بالعهد . الصبر .

المفردات :

البر : التوسع فى فعل الخير ، مأخوذ من البَرّ مقابل البحر . وقد

تصوروا فى البر السعة فأخذوا منه البِر بمعنى التوسع فى فعل الخير . ويضاف الى الله تعالى نحو « إنه هـو البَر الرحيم » ويكون معناه كثير العطاء فياض الجود . ويضاف الى العبد ويكون معناه التوسع فى الطاعة ، فهو اسم جامع للطاعات وفعل الخـيرات . وقد جعل مقابلا للفجور فى قوله سبحانه : « إن الأبرار لفى نعيم ، وإن الفجار لفى جحيم » . وجعل مقابلا للاثم فى قوله تعالى «وتعاونوا على البر والتقوى ولاتعاونوا على الاثم والعدوان» . ويجيء بمعنى التوسـع فى الاحسان ، ومنه بر الوالدين ، وقـوله تعالى « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تـبروهم وتقسطوا إليهم ، إن الله يحب المقسطين »

آمن : الأمن : طمأنينة النفس وزوال الخـوف . وقد أخذوا منه آمن بمعنى صـدّق وأذعن ، وانتفى عنه الريب والشك ، واطمأنت نفسه الى ما علمه ، وانشرح صدره له ، وزال عنه القلق ، فصار آمنا .

اليوم الآخر : هـو يوم القيامة ، وهـو الدار الآخرة ، مقابل اليـوم الأول وهو أيام الدنيا .

الملائكة : خلق مغيّب عنا لا يمكن أن ينفذ إليـه ابتداء إلا علم اللطيف الخبير ونحن غير مكلفين إدراك حقيقتهم ، وإن كنا مطالبين باعتقاد وجودهم .

النبيين : النبوة : سفارة بين الله جل شـأنه وبين ذوى العقول من عباده لإبلاغهم وحيه بما فيه سعادتهم فى الدنيا والآخرة . والنبى : منبئ عن الله سبحانه وتعالى ومنبئ للعباد . والنبأ : خبر له فائدة عظيمة يحصل به العـلم . فليس كل خبر نبأ . ومن حق النبأ أن يكون عاريا عن الـكذب .

ذوى القربى : أقارب الشخص ، بولادة الأبوين أو الجدين .

اليتامى : اليتيم : الصبى الذى انقطع عنه أبوه قبل البلوغ .

المساكين : المسكين : هو المحتاج الدائم السكون الى الناس لحاجته اليهم فاذا سألهم سمى سائلا .

ابن السبيل : هو المسافر المنقطع عن ماله وبه حاجة تحمله على عدم الايواء فى مكان وعلى ملازمة الطريق . ويقال للطير الذى يلازم الماء : ابن الماء .

إقامة الصلاة : تعديل أركانها ، ومراعاة سننها وآدابها ، وجعلها مشتملة على الاخلاص لله ومراقبته . مأخوذة من قولهم : أقام العود قوّمه وأصلحه .

العهد : الموثق الذى تجب مراعاته .

الصبر : الإمساك عن الشىء فى ضيق . يقال : صبرتُ الدابة حبستها بلا علف . وهو فى الشرع : حبس النفس عما هو محرم شرعا أو محظور عقلا . والصبر : اسم عام تحته أفراد تخص بأسماء : فحبس النفس فى الحرب يسمى شجاعة ؛ وحبس النفس فى نائبة مُضجرة يسمى سعة الصدر ؛ وحبس النفس عن الكلام يسمى كتمانا ؛ وحبسها عن فضل العيش يسمى زهدا ؛ وحبسها عن الغيظ يسمى حلما . الى غير ذلك .

المتقون : المتقى : مأخوذ من وقاه أى جعل له وقاية فاتقى . والوقاية فرط الصيانة . والمتقى فى الشريعة : هو الذى يمنع نفسه تعاطى ما يستحق به العقوبة من فعل أو ترك .

فضل هذه الآية :

روى عن النبى صلى الله عليه وسلم « من عمل بهذه الآية فقد استكمل الايمان » . ذلك أنها مشتملة على جميع أفعال الخير وصفات الكمال البشرى تصريحا وتلويحا كما يعلم مما يأتى . وهى على تكثر فنونها وتنوع ضروبها منحصرة فى خلال ثلاث : صحة الاعتقاد ، وحسن المعاشرة مع العباد ، وتهذيب النفس . وقد أشير الى الأولى بالايمان بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين ؛ والى الثانية بايتاء المال والوفاء بالعهد ؛ والى الثالثة باقامة الصلاة والصبر . ولذلك وصف الله سبحانه الحائزين لهذه الصفات بالصدق والتقوى .

سبب نزول الآية :

كان المسلمون أول الأمر يتوجهون فى الصلاة الى بيت المقدس ، ثم حولت القبلة وأمروا بالتوجه الى البيت الحرام . قال الله تعالى : « قد نرى تقلُّبَ وجهك فى السماء فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره » . وبهذا التحويل اغتبط المسلمون وفرحوا لأن الكعبة بيت إبراهيم واسماعيل جدى العرب ؛ وتألم اليهود والنصارى لأن بيت المقدس قبلتهم ، وكانوا يحبون بقاء المسلمين معهم . وخاض الجميع فى الأمر واشتد كل فريق ينصر رأيه . فنبه الله تعالى الى خطئهم ، وبيّن أن الجدل فى مثل هذا ليس من شأن العقلاء ، لأنه جدل خارج عن دائرة البر والخير ، إذ لا تفاضل للجهات ، ولا للأمكنة ، ولا للأزمنة فى ذاتها ، وإنما الفضل لما يحصل فيها من الخير ، فيجب أن يبحث عن الخير : أين هو ، وبم يتحقق ؟ وأن يحرص على تحصيله والاتصاف به .

أصول الخير :

أنزل الله هذه الآية حسما لهذا الجدل الذى لا خير فيه ، وبين لهم فيها أن الخير الجامع هو صحة العقيدة ، والاحسان الى الجماعة البشرية ، وتهذيب النفس واتصافها بمكارم الأخلاق . وأن صحة العقيدة تحصل بالايمان بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين . والاحسان الى الجماعة يكون بانفاق المال وبذله ، وإيفاء العهد . وتهذيب النفس يحصل بالصلاة والصبر .

الايمان وأثره فى الانسان :

الايمان بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين : مبدأ كل خير ، وأساس كل فضيلة ، لأنه يستتبع صدور الأعمال الصالحة ، واتقاء الشرور ، ويصير الانسان خيرا فاضلا ، يفعل الخير لذاته وابتغاء رضوان الله ، ويترك الشر لذاته وامتثالا لأمر الله .

والايمان بالله يشمل الايمان بأنه قادر عالم حكيم ، بر رحيم ، متصف بجميع صفات الكمال ، لا يأمر إلا بما هو حسن نافع ، ولا ينهى إلا عما هو ضار قبيح. هذا الايمان يستتبع تقبُّلَ الوحي جميعه مع الاذعان والتسليم والرضا والطمأنينة الى أنه حق كله . فقد عرف عن الانسان الرضا بنصيحة الرجل المجرب الحكيم ، فكيف به مع نصيحة الإله العليم الحكيم المحيط بما في السموات والأرض ، المطلع على السرائر وخفايا النفوس ، الذي يضع الأمور مواضعها ، ويقدرها تقديرا ، عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال ؟

والايمان باليوم الآخر يهوّن أمر الحياة الدنيا ، ويحقر شأنها ، ويجعلها عند المؤمن طريق الآخرة ووسيلة لها ، لا يحب منها إلا ما كان مقربا الى الله ، وسبيلا الى سعادة الآخرة ، ولا يحرص عليها حرص من ليس له مطمع وراءها ، بل سيان عنـده أن يبقى فيها عاملا للصالحات ، وأن يفارقها فرارا من شرها وتعجلا لنعيم مقيم عند رب العالمين .

هـذا المؤمن بالله وباليوم الآخر تهون عليه نفسه ، ويهون عليه ماله ، ويهون عليه كل شيء في الحياة في سبيل الحق ، وفي سبيل رضا الله وإعلاء كلمته . ذلك أنه يعـلم أن رضوان الله أكبر من كل شيء ، وأن نعيم الآخرة نعيم دائم ، وأن الدنيا ظل زائل .

والإيمان بالملائكة وسـيلة الى الإيمان بالكتب والأنبياء والإيمان بالكتب يستلزم الوقوف عند حدودها ، وتقبلَ ما فيها ، واعتقادَ أنه الخير والسعادة .

والايمان بالأنبياء يستتبع التخلق بأخلاقهم ، والاهتداء بهديهم ، والتأدب بأدبهم .

تعليق وتطبيق :

هذا ، وقد قلنا : إن الاطمئنان والاستسلام من لوازم الايمان . وعلى ذلك فالمسلم الذي يفرّق بين أحكام الاسلام فيقبل بعضا ويترك بعضا ، ويرى بعضها

حسنا وبعضها غير ملائم ، لا يمكن أن يكون مصدقا بالكتاب كله ، بل هو يؤمن ببعض ويكفر ببعض . وكيف لا يقبل الكتاب كله إذا كان يعتقد أنه حق ويصدق قوله تعالى جل شأنه : « ذلك بأن الله نزل الكتاب بالحق ، وإن الذين اختلفوا فى الكتاب لفى شقاق بعيد » ؟

هذا الذى يكفر بالبعض يدخل فى قوله تعالى : « أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض ؟ فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزى فى الحياة الدنيا ويوم القيامة يُردّون الى أشد العذاب ، وما الله بغافل عما تعملون » .

* * *

وقد أصيب الاسلام قديما وحديثا بطائفتين نُسبتا اليه بغير حق : طائفة سحرت ببعض الآراء والمذاهب ، وفتنت ببعض الشرائع . وطائفة شغلت نفسها بما هو بعيد عن مقاصد الاسلام ، وما يرمى اليه من نصر الحق والفضيلة ، وسعادة الجماعة البشرية ، وتطهير النفوس وتهذيبها ، والاستهانة بالحياة جميعها ، إذ لم تعاضد الحق و تناصره . الحق الذى به قامت السموات والأرض ، والذى به نزل القرآن . وهؤلاء مثلهم كمثل أولئك الذين خاضوا فى القبلة وبين الله لهم أن ذلك ليس من البر .

وها نحن أولاء نرى ضعف حال المسلمين بالبعد عن الهدى الالهى ؛ ونرى العالم يتخبط فيما ابتدعه من مذاهب وآراء ، وفيما صار اليه من مادية يتلظى فى نارها المتأججة .

وأصحاب المدنية هم الذين يحطبون لهذه النار ، وسوف تأكلهم وتذروهم الرياح إن لم يثوبوا الى رشدهم ويعودوا الى روحية التدين ، وإلى طلب الحق عند الله جل شأنه .

الايمان بالله ورسله لا يكون براً حتى تتحقق آثاره ، ويكون الله ورسوله أحب الى العبد من كل شىء سواهما ، قال الله تعالى : « قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون

كسادها ومساكن ترضونها أحب اليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره ، والله لا يهدى القوم الفاسقين » .

ولا يكون برآ حتى تتحقق فى المؤمن الصفات التى وصف الله بها المؤمنين . فقد وصفهم بأنهم تطمئن قلوبهم بذكر الله ، وبأنهم إذا دعوا الى الله ورسوله ليحكم بينهم أقبلوا وقالوا سمعنا وأطعنا ، وقال فيهم : « إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله أولئك هم الصادقون » . هذا هو الايمان .

الايمان الناقص

أما التصديق الذى لا يستتبع الآثار أو تكون له آثار ناقصة ، فهو إيمان ناقص لا يوصف صاحبه بالصدق ولا بالتقوى ، ولا ينجيه من عذاب النار وسوء المصير . وقد قال الغزالى : مثل المؤمن الذى لا يعمل والمؤمن الذى يعمل كمثل شجرة القرع إذا قالت لشجرة السرو : أنا شجرة وأنت شجرة ، فتقول شجرة السرو : مهلا حتى يأتى الخريف بعواصفه فتقتلعك ، ويطير بك الهواء ، أما أنا فأبقى راسخة تزيل العواصف ما جف من أوراقى وتبقى الأوراق الناضرة . هكذا حال المؤمن تصفيه النوائب فيخرج منها نقيا سليم العرض ، سليم العقيدة ، كالذهب تصفيه البوتقة فيظهر نقيا لامعا . أما ضعيف الايمان فان النوائب تذهب بما عنده منه ، ويخرج منها مرذولا ، مثلوم العرض ، كسير النفس ، ذليلا عند الله وعند العباد .

الاحسان الى الجماعة :

بعد أن بين الله سبحانه ما يرجع الى العقيدة ، بين ما يتم به الاحسان إلى الجماعة . والانسان كائن يختلف عن غيره أشد الاختلاف ، فهو كثير الحاجات ، متنوع الرغبات ، بعيد الأمل ، كثير الطمع ، يحتاج لغيره فيما يقوّم البدن ويستره ويرفه عيشه ، وفيما يصلح نفسه من العلم والتهذيب ،

لا تقف رغباته عند حد ، ولا يستقر على حال ، ويحتاج إلى غيره فى حماية نفسه من العاديات . فلا يمكن أن يعتبر الفرد وحدة منفصلة عن الجماعة ، بل يجب أن يعتبر جزءا من وحدة ومتمما لها ، فلا بد أن يتبادل مع أجزاء الوحدة ما يحفظ هذه الوحدة سليمة ويعود عليها بالخير والبركة . بهذا الاعتبار كان مطالبا بأن يقدم للوحدة نفسه وماله وكل ما وهبه الله إياه من علم وعقل وتهذيب . غير أن الانسان أنانى أيضاً : يحب نفسه ، ويحب ماله ، لأنه يرى فى المال حفظ النفس والتمتع بالملذات فيحرص عليه لذلك ويشتد حرصه . فأرشد الله تعالى العباد إلى ما يجب أن يكونوا عليه من التعاون ، وحثهم على إنفاق المال كما حثهم على تقديم النفس عند الحاجة . ولم يقبل الله الانفاق ولم يجعله برا إلا حيث يكون المال المبذول محبوبا ، وحيث يكون البذل نفسه محبوبا بعد رياضة النفس عليه واعتياده . وهذا هو قوله تعالى : « وآتى المال على حبه » .

ولا يكون البذل برا إلا حيث يكون فى موضع البذل . ولذلك بين الله من يبذل إليهم المال ، وأنهم : أهل القرابة ، واليتامى والمساكين من سأل منهم ومن لم يسأل ، والغرباء المحتاجون المنقطعون عن بلادهم وأموالهم ، والعبيد الأرقاء . والانفاق إليهم إما بشرائهم وعتقهم ، وإما باعطائهم المال ليخلصوا به أنفسهم من مواليهم عند الكتابة .

وقدم الله ذوى القربى لأن الانفاق عليهم صدقة وصلة للرحم ، وثنى باليتامى لأنه إذا فقد عائلهم فقد وجب على الجماعة البشرية صيانتهم وحفظهم .

عناية الاسلام بالرقيق ومشروعية الرق :

وجعل الله للرقاب سهما من الصدقة ، وسهما من الزكاة أيضا ؛ لأن الإسلام يعتبر الإنسان حرا بطبعه ، ولا يرضى الرق إلا حيث يخرج الإنسان عن طبع الإنسان فيقف فى سبيل حرية الرأى ، وفى سبيل نشر الفضيلة والدين الحق . إذ ذاك يصح أن تهدر آدميته ويعامل معاملة البهيمة . غير أنه مع ذلك قد شرع

الإسلام للتحرير طرقاً كثيرة: فى الكفارات، وفى أموال الزكاة المفروضة، وفى الصدقات غير المحدودة.

وإيتاء المال فى هذه الآية غير الزكاة. فالزكاة محدودة بالنوع والمقدار، بينها النبى صلى الله عليه وسلم. ولها فى المذاهب فروع وتفاصيل.

أما إيتاء المال هنا فليس محدودا بقدر معين، ولا بزمن معين، وإنما هو واجب دائما عند الحاجة وبمقدار الحاجة.

طريق التهذيب النفسى :

بعد هذا بين الله تعالى ما يهذب النفس وهو الصلاة، فى الصلاة توجه الى الحق المعبود، وانقطاع عن الخلق، وتفريغ للسر، وانصراف الى ذى العزة والجبروت، المحاسب على الأعمال جميعها، والمجازى على الذرة من الخير والشر. وفى الصلاة اعتراف بأن الله هو المعبود وحده، والمستعان وحده. ومن شأن ذلك كله أن يديم مراقبة الله فى الأعمال جميعها، وأن يصفى النفس ويهذبها، فتصدر الأعمال فى السر والعلانية وفق أوامر الله، نافعة لعباده. ومن شأن هذا أيضا أن ينتهى الشخص عن الفحشاء والمنكر.

هذه هى الصلاة التى جعلها الله نوعا من البر، وفيها قال: « إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر » وقال: « إن الانسان خلق هلوعا إذا مسه الشر جزوعا، وإذا مسه الخير منوعا، إلا المصلين » الآية.

الوفاء بالعهد :

بقى بعد هذا مما عده الله برا: الوفاء بالعهد، والصبر. والوفاء بالعهد قسم منه يرجع الى معاملة الله جل شأنه، وقسم منه يرجع الى معاملة العباد. ذلك أن العهد ميثاق وتعاقد، منه ما هو صريح، ومنه ما هو ضمنى. فالذى آمن بالله ورسوله قد أعطى عهدا لله ورسوله، والتزم الوفاء به واتباع ما قضى به الله ورسوله، والتزم أن يهتدى بهدى الرسل ويقتدى بهم. والانسان

فى الجماعة البشرية ملتزم ضمنا أن يتبادل معها المنافع ، وأن يكون عضوا صالحا حسب استعداده وطاقته ، وأن يشركها فيما وهبه الله إياه من علم ومال وقوة .

والمتولى لعمل من أعمال الدولة ، سواء أكان ذلك العمل صغيرا أم كبيرا ، ملتزم أن يوفى ذلك العمل ، وأن يجيد فيه ويحسن ، وألا يضار أحدا من الأمة ، وألا يأكل أموال الناس بالباطل ، وألا يحيف على أحد ، وألا يظلم أحدا . فهو ملتزم حدود الله ، وملتزم أيضا قانون البلد فى غير معصية الله . وهناك التزامات فردية بين شخص وشخص آخر ، وهى العقود . والانسان مطالب أمام الله جل شأنه بإيفاء العهود جميعها . وهذا الوفاء نوع من البر .

هذا ، وإذا تدبرنا ما حل بالأمم من هوان ، وما أصابها من ذل ، وجدنا أعظم أسبابه فى ترك إنفاق المال وبذله ، وفى الغدر وعدم الوفاء بالعهد . والغدر والبخل مبيدان للأمم ، معجلان لعقوبة الله فى الدنيا .

الصبر :

أما الصبر فقد جعله الله من أنواع البر : فى الفقر ، والمرض ، والقتال . وهو فى غيرها من أنواع البر أيضا . ولكن الاقتصار عليها لأن الصبر فيها أشد من الصبر فى غيرها . وقد ذكر الله سبحانه الصبر فى كتابه الكريم أكثر من سبعين مرة ؛ وأضاف اليه أكثر الخيرات وأرفع الدرجات . من ذلك : « إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب » « ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » . وفى رسالة لعمر الفاروق رضى الله عنه « عليك بالصبر ، واعلم أن الصبر صبران ، أحدهما أفضل من الآخر : الصبر فى المصيبات حسن ، وأفضل منه الصبر عما حرم الله » .

ثم ختم الله هذه الآية الجامعة لصفات الكمال البشرى وأفعال الخير بقوله : « أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون » تنويها بشأن الذين تحلوا بهذه الصفات ، وتنبيها الى أنهم بها كانوا هم الصادقين المتقين .

نسأل الله أن يجعلنا من الصادقين المتقين ! والله أعلم .

الدرس الثانى

ألقاه فضيلته فى مساء يوم الجمعة السادس عشر من شهر رمضان
بالمسجد الحسينى

قال فضيلته :

بسم الله الرحمن الرحيم :

قال الله تعالى : (وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ . الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ، وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ . وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ ، وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ ، وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ . أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ . قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ . هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ)

(الآية : ١٣٣ — ١٣٨ من سورة آل عمران)

المفردات . أسباب المغفرة . سعة الجنة ومكانها ووجودها الآن . الانفاق فى السراء والضراء . تعدد أوصاف المتقين . إرشاد القرآن الى طريقة البذل . فائدة البذل فى الأمة والفرد . المسلمون والبذل . كظم الغيظ والعفو . الاحسان وأثره . الاستغفار والاصرار على الذنب . سنن الله وارتباط السعادة بمراقبتها .

المفردات :

الغفر : إلباس ما يصون عن الدنس . ومنه : اصبغ ثوبك فانه أغفر للدنس . والغفران والمغفرة من الله : أن يصون العبدَ من أن تمسه النار . والاستغفار : طلب المغفرة بالقول والفعل . أما طلب المغفرة بالقول مع الاستمرار على الذنب فهو من الألاعيب التى لا يقام لها وزن .

التقوى : جعل النفس فى وقاية مما يخاف . وهى فى عرف الشرع : حفظ النفس عما يؤثم ، وذلك بترك المحظورات ، وفعل المأمورات .

السراء : حالة المسرة . والضراء : حالة المضرة .

الكَظَم : مخرج النفس . وكظم فلان : حبس نفسه . وكظم الغيظ : أمسك على ما فى نفسه منه بالصبر حتى لا يظهر له أثر . وكظم القربة إذا ملأها وسدّها .

والغيظ : أشد الغضب . وهو الحرارة التى يجدها الانسان عند فوران الدم

العفو : أن تترك مؤاخذة من يجنى عليك مع القدرة على المؤاخذة . أما ترك المؤاخذة مع العجز فلا يسمى عفوا .

الاحسان : الإتيان بالفعل على الوجه اللائق به .

الفاحشة : ما عظم قبحه من الأفعال والأقوال .

الظلم : وضع الشيء فى غير موضعه المختص به : إما بزيادة أو نقصان ، أو بعدول عن وقته أو مكانه . ويقال الظلم لمجاوزة الحد الذى هو بمنزلة نقطة الدائرة قلّ التجاوز أوكثر . ولهذا استعمل فى الذنب الصغير والذنب الكبير . والظلم ثلاثة أنواع : ظلم بين الانسان وربه ، وأعظمه الكفر ، والشرك ، والنفاق ؛ وظلم بينه وبين الناس ؛ وظلم بينه وبين نفسه .

الصر : أصله الشد . والصرة ما تعقد فيه الدراهم . وقد أخذ منه أصر على الذنب بمعنى شد عليه وامتنع عن الاقلاع عنه . والاصرار : كل عزم شددت عليه .

السنن : سَن الحديد إسالته وتحديده . وقد قيل من الإسالة سننت الماء أى أسلته وسكبته . والسنة : الطريقة . وسنة الله تعالى تقال لطريقة حكمه وطريقة طاعته .

البيان : الكشف عن الشيء وتوضيحه . ويسمى الكلام بيانا لكشفه عن المعنى المقصود وإظهاره ، نحو « هذا بيان للناس » .

الهداية : الدلالة بلطف . وهداية الله ضروب : منها ماعم به كل مكلف : من العقل ، والفطنة ، والمعارف الضرورية . ومنها ماجاء على لسان الأنبياء . ومنها التوفيق الذى خص به من هدى من عباده ، وهو المراد بقوله : « والذين اهتدوا زادهم هدى » .

أسباب المغفرة :

المعنى : « سارعوا الى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض » : بادروا الى تحصيل الأسباب الموصلة الى المغفرة والى الجنة .

وهذه الأسباب على تنوعها واختلاف ضروبها ترجع الى طاعة الله ورسوله ، والى الايمان والعمل الصالح « وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون » . « من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم

أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » . « فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا كفران لسعيه وإنا له كاتبون » .

سعة الجنة :

وقد جاء فى هذه الآية : « وجنة عرضها السموات والأرض » ، وفى آية أخرى « وجنة عرضها كعرض السماء والأرض » . ومعنى الآية على ظاهرها أنه لو وضعت السموات واحدة بجوار الأخرى ، ووضعت الأرضون كذلك ، لكان مجموع هذا كله هو عرض الجنة . وقد يصح أن يكون الغرض الإخبار عن السعة فشبهت بأوسع ما علمه الناس من خلق الله . وخص العرض بالذكر للمبالغة لأنه يكون عادة أقل من الطول . والعرب تصف الشىء بالعرض إذا أرادت وصفه بالسعة . ولذلك يقولون : أعرض فلان فى المكارم إذا توسع فيها.

مكانها :

وعلى المعنى الأول لا يمكن أن تكون الجنة فى السموات والأرض ، بل يجب أن تكون خارجة عنهما ، وليس هناك ما يمنع من هذا ، فإن خلق الله أوسع من السموات والأرض . والعلماء الآن يقولون إن هناك كواكب لما يصل نورها إلينا حتى الآن . ولا شبهة فى خروج هذه الكواكب عن السموات المعروفة .

وعلى المعنى الثانى يصح أن تكون فى السموات ، وأن تكون خارجة عنها . ونحن لا يعنينا أن نعرف موضع الجنة ومكانها : فى العالم أم خارجه ؟ ولا أن نعلم أجزاءها وكيفية تركيبها ، وإنما الذى يعنينا ويفيدنا أن نعرف الطرق الموصلة اليها . وقد تكفل الله سبحانه ببيانها ، كما بين بعض أوصافها المرغبة فيها .

وجودها :

« أعدت للمتقين » : هيئت لمن أطاع الله سبحانه وجعل بينه وبين المعاصى حجابا .

والآية تدل بظاهرها على أن الجنة مخلوقة الآن لأن الفعل الماضى يُفهم هذا . غير أنه من الجائز أن يكون من قبيل قوله تعالى : « ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الأرض » فلا يدل على خلقها الآن . والبحث فى هذا لا فائدة له ، ولا طائل تحته .

الانفاق :

« الذين ينفقون فى السراء والضراء » :

هذا وصف من أوصاف المتقين الممدوحة . وستأتى لهم فى الآية أوصاف أخرى ، هى : كظم الغيظ ، والعفو ، والاحسان . وقد وصف الله المتقين أول سورة البقرة بأنهم الذين يؤمنون بالغيب ، ويقيمون الصلاة ، وينفقون مما رزقهم الله ، ويؤمنون بما أنزله على الأنبياء جميعهم . وبين فى آية « ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب » أنهم المؤمنون الذين ينفقون المال على حبه ، ويقيمون الصلاة ، ويؤتون الزكاة ، ويصبرون فى البأساء والضراء ، ويوفون بالعهد . ووصفهم فى آيات غير هذه بأوصاف أخرى .

السر فى تعدد أوصاف المتقين :

والسر فى تعدد أوصافهم وكثرتها أن التقوى جامعة لصفات الخير ، فهى تستتبع صفات كثيرةً من صفاته فرقت فى مواضع من الكتاب الكريم لمناسبات خاصة .

والسراء : الحالة التى تسر : من يسر ، ورخاء ، وصحة ، وجاه ، وكثرة أولاد وعشيرة .

والضراء : الحالة التى تضر فى النفس أو فى البدن أو فى خارج عنهما .

والمعنى : أنهم ينفقون المال فى جميع أحوالهم لا تمنعهم حالة فرح وسرور ، ولا حالة محنة وبلاء ، وسواء عليهم أكان الواحد منهم فى عرس أم فى حبس ، فان البذل طبيعة لهم ، وحبه مستقر فى نفوسهم . وغير خاف أن هذه الصفة أنفع للبشر من سائر الصفات ، لأن أثرها متعد الى الجماعة الانسانية ، تنتفع به

كما ينتفع المتصف بها باللذة النفسية العاجلة والجزاء الآجل . وهى من الصفات التى يقل المتصفون بها ، لأن الانفاق شاق على النفس ، والمال عدل الروح كما يقولون ، لأنه وسيلة من وسائل حفظ الحياة والترفيه عنها عند الشدة . لذلك قدم الله هذه الصفة على غيرها من صفات المتقين .

القرآن والبذل :

عنى الاسلام أشد العناية بالصدقة والبذل . وقد حث عليها الكتاب الكريم فى سور كثيرة جدا ، ويكاد نظام الصدقات الغير المفروضة يكون كاملا فى سورة البقرة من قول الله سبحانه « مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله » الى قوله « يأيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين » . ففى هذه الآيات حث على الصدقة ، وبيان أنه يجب أن تكون خالية من المن والأذى ، وأن تكون من طيبات الكسب لا من المال الخبيث . وفيها بيان أن إخفاءها أفضل من إظهارها . وفى الحديث الشريف « على كل مسلم صدقة . قيل : فان لم يجد ؟ قال : يعمل ويتصدق » . وفى الحديث أيضا : « اتقوا النار ولو بشق تمرة » . فهذه العناية فى الكتاب والسنة ترمى الى غرض واحد هو أن يكون البذل خُلقا من أخلاق المسلمين وعادة لهم .

فائدة البذل :

ولا شك أن البذل على هذه الطريقة يقوى روابط الأفراد بعضهم ببعض ، ويصلح شأن الجماعات ، ويحقق سعادتها ، وينفى ضغينة الفقراء على الأغنياء ، ويزيل آلام أهل الزمانة والعجز ، ويوجد التراحم ، وينمى العاطفة ، ويحقق معنى الأخوة .

المسلمون والبذل :

حرص الاسلام على هذا أشد الحرص . ولكن المسلمين ابتعدوا عن هذا الهدى الإلهى ، وسلك طريقه غيرهم ، وأصبحوا يرمون المسلمين بجمود

العاطفة ، وينسبون ذلك الى الاسلام ، ويباهون بما أوجدوه من معاهد ومصحات ، ودور للعلم ، وأمكنة للفقراء والعجزة .

كظم الغيظ والعفو :

« والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس » :

أى الذين حبسوا غيظهم مع امتلاء نفوسهم منه ، وصبروا على الأذى والمكروه ، فلم تظهر عليهم آثار الألم النفسى وتهيُّج الدم الذى يصاحب هذا الألم عادة ، ولم يصدر منهم أذى لمن غاظهم . والذين تجاوزوا عن عقوبة من استحق العقوبة ابتغاء رضوان الله ومحبته . وهذان وصفان من أوصاف المتقين .

ولا يخفى أن العفو على هذه الصفة محمود فى حقوق الأشخاص . أما حقوق الله تعالى فلا يجوز العفو عنها إلا ما كان منها للامام عند المصلحة واقتضاء السياسة الشرعية . وأما العفو عن حقوق الأشخاص إذا ترتب عليه طغيان المعفو عنه وضراوته على الشر فلا يصح . وهذا موضع دقيق من أبواب السياسة الشرعية . وللعلماء فيه حديث طويل .

الاحسان :

« والله يحب المحسنين » :

ومن الممكن أن يكون هذا وصفا رابعا للمتقين معطوفا على الأوصاف السابقة ، كأنه قال : والمحسنين والله يحب المحسنين . ويكون ذكره على هذا النحو لا على المثال السابق ، للإشارة الى علو قدر الإحسان . ومن الممكن أن يكون المعنى : إن الذى سبق من الأوصاف يعد إحسانا والله يحب المحسنين .

والإحسان : الإتيان بالعمل على الوجه اللائق . وقد عرّفه النبى صلى الله عليه وسلم بقوله : « أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » .

والعبادة على هذا النحو لا بد أن تكون عامرة بالإخلاص والمراقبة ، لا يشوبها الرياء ، ولا يقصد منها الكيد .

ومن لطيف ما يروى أن جارية لعلى بن الحسن كانت تسكب الماء عليه فسقط الإبريق من يدها فشج رأسه ، فرفع رأسه إليها فقالت : والكاظمين الغيظ . فقال : كظمت غيظي . فقالت : والعافين عن الناس . فقال : عفا الله عنك . فقالت : والله يحب المحسنين . قال : اذهبي فأنت حرة لوجه الله .

والوجه الأول في فهم الآية هو المتبادر فيها .

الاستغفار والإصرار على الذنب :

« والذين إذا فعلوا فاحشة أوظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون » :

اسم الموصول يصح أن يكون معطوفا على المتقين ، ويكون قوله «أولئك جزاؤهم » إشارة الى الفريقين : فريق المتقين ، وفريق الذين إذا فعلوا فاحشة ذكروا الله . ويصح أن يكون مبتدأ خبره أولئك جزاؤهم .

والمعنى على الأول أن الجنة أعدت للمتقين وللذين إذا فعلوا ذنبا فاحش القبح أو أي ذنب آخر ذكروا مقام الله جل شأنه وما يجب أن يكون العبد عليه أمام ذلك الجلال : من فعل الطاعات ، وترك اجتراح السيئات . أو ذكروا نهيه ووعيده فطلبوا المغفرة منه ، وأقلعوا عن الذنب ، وتركوا الاصرار عليه في حالة علمهم بأنه ذنب . وفي هذا دلالة على أن الذي يفعل الذنب ولا يعلم أنه ذنب ولا يعلم وعيد الله عليه يكون معذورا غير مؤاخذ ، وعلى أن المؤمن لا يرتكب فعل الموبقة عالما بأنها موبقة . ونظير هذا قول الله تعالى « إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب فأولئك يتوب الله عليهم ، وكان الله عليما حكيما » . وأما حديث : ما أصر من استغفر وإن عاد في اليوم سبعين مرة ، فحديث ضعيف لا يتفق معناه وما جاء في الكتاب العزيز .

والمعنى على الثاني : الذين فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم الخ جزاؤهم جنات تجرى من تحتها الأنهار .

وللمؤمنين درجتان : عليا وهى ترك الشر لأنه خروج على النظام الالهى ، ودنيا وهى ترك الشر خوف العقاب . وقد قيل : إن الله أوحى الى موسى : ما أقل حياء من يطمع فى رحمتى بغير عمل ! كيف أجود برحمتى على من يبخل بطاعتى ! وعن بعضهم : طلب الجنة بلا عمل ذنب من الذنوب ، وانتظار الشفاعة بلا سبب نوع من الغرور ، ورجاء الرحمة ممن لا يطاع حمق وجهالة . وعن الحسن رضى الله تعالى عنه : يقول الله تعالى يوم القيامة : جوزوا الصراط بعفوى ، وادخلوا الجنة برحمتى ، واقتسموها بأعمالكم .

وقوله تعالى : « ومن يغفر الذنوب إلا الله » جملة جيء بها بين المعطوف والمعطوف عليه للحث على المبادرة الى الاستغفار ، والتوجه بطلبها الى الواحد القهار ، لأنه وحده هو الذى يغفر الذنوب جميعا ، فإن رحمته وسعت كل شيء وقد كتبها للمتقين . وللإشعار بأن المذنب لا يصح أن ييأس من رحمة الله ، فإن باب الرحمة مفتوح أمامه متى تاب وأناب وأقلع عن المعصية . وقد قال الله تعالى : « إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات ، وكان الله غفورا رحيما » . والجملة استفهامية فى معنى النفى ، ومعناها أنه لا يغفر الذنوب أحد إلا الله سبحانه وتعالى .

«أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها» :

هذا إما أن يكون جزاء للفريقين : المتقين ، والذاكرين الله إذا فعلوا الخ . وإما أن يكون جزاء للفريق الثانى خاصة ، وذلك بناء على ما تقدم من الوجهين . وقد ورد فى القرآن الكريم لفظ الجنة والجنات كثيرا فى مقابلة النار . والجنة فى اللغة : البستان ، وليس المراد هنا بلا شبهة ذلك المفهوم اللغوى ، بل المراد دار الخلود والنعيم فى الدار الآخرة . ويجب الإيمان بها كما يجب الإيمان بالنار . ولا نتجاوز فى البحث ما ورد بشأنهما من النصوص . وقد ذكرت الجنة

مقترنة بالأنهار وأنواع من الشجر المثمر وغيرها ، وهذا يدل على أن دار النعيم سميت جنة لاشتمالها على الجنات .

« ونعم أجر العاملين » :

معناه : ونعم هذا الجزاء أجرا للعاملين . والناس متفاوتون فى هذا الجزاء بتفاوتهم فى الأعمال .

سنة الله فى الاجتماع :

« قد خلت من قبلكم سنن فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين » :

يقول الله جل شأنه : إن نظام الاجتماع البشرى جرى على سنن ثابتة وقواعد لا تتغير ، كما جرى النظام الكونى على هذه السنن . والأمة التى تسير على هذه السنن وتراقبها وتعمل عليها ، هى الأمة الفائزة التى تنال الحظ الأوفر والنصيب الأعظم فى هذه الحياة . والأمة التى لا تراقب هذه السنن بأن تجهلها أو تعلمها ولا تعمل عليها بل تعمل على مقتضى الشهوات العاجلة ، أمة يعاجلها الله بالفناء والذل ، ويعاقبها بالخزى والهوان .

ومن السنن الإلهية التى تسعد بها الأمم : العلم والخلق القويم ، والايمان بالله والدار الآخرة والنبيين والكتب ، وطاعة الله ورسوله .

ومن السنن التى تسعد بها الأمم : القوة والمنعة ، والسعى للحصول على أسباب القوة مادية ومعنوية .

ومن السنن : العدل ، وفناء الفرد فى الجماعة ، واعتبار نفسه فردا منها يعمل لمصلحتها لا لمصلحته الذاتية .

والأمم التى تفرط فى هذه السنن تبتلى بالنكال والوبال . جرت الأمور على هذا فى القديم والحديث . وقد طلب الله الينا الاعتبار والعظة ، وأمر بالسير فى الأرض لتعرّف أحوال الأمم وأسباب سعادتها وشقائها .

ومن قبيل السير في الأرض قراءة السير وتاريخ الأمم ونظم الاجتماع والسياسة . وقد تكرر في القرآن الكريم ذكر السنن : « فهل ينظرون إلا سنة الأولين ؟ فلن تجد لسنة الله تبديلا ، ولن تجد لسنة الله تحويلا » .

« هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين » :

ما ذكره الله تعالى من أن لله سننا هو بيان لكافة الناس يفهمه كل من له عقل مستعد للفهم ، أما أنه هدى وموعظة ، فذلك لمن اتقى الله خاصة ، لأنه هو الذي يعمل بما يعلم ، ويتعظ بما يمر أمامه من العظات والعبر .

نعوذ بالله من الخذلان ، ونسأله الهداية واللطف !

الدرس الثالث

ألقاه فضيلته مساء يوم الخميس الثانى والعشرين من شهر رمضان بمسجد أبى العلا بالقاهرة

قال فضيلته :

بسم الله الرحمن الرحيم :

قال الله تعالى : (شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ، كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ، اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ . وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ، وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ، وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ) . (الآيتان ١٣ ، ١٤ من سورة الشورى)

المفردات . سبب الاقتصار فى الآية على الأنبياء المذكورين . الشريعة المتحدة عند جميع الأنبياء . الشريعة المختلفة بحسب الاستعداد . حكمة تقرير أن شريعة الله واحدة . الإيمان بالله مودع فى الفطرة . حاجة الناس إلى الهدى الإلهى . التدين

والحرية . المدنية والعقل . الاسلام والوحدة . موقف المشركين من الدعوة . اختلاف أتباع الأنبياء . أسباب الاختلاف . التعصب للرأى . قاعدة القرآن عند الاختلاف . اختلاف المسلمين . ضرر غرورهم بالفلسفة . انحصار دائرة العقل . ليس كل خلاف مذموما . عاقبة التعصب للرأى .

المفردات :

الشرع فى الأصل : اسم للطريق الواضح ، واستعير للطريقة الالهية التى بينها الله على لسان أنبيائه .

الدين : يقال للطاعة ، ومنه قوله تعالى : « ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن » . ويقال للملة ، ومنه قوله تعالى : « ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه » .

الوصية : التقدم الى الغير بشىء يعمله مقترنا بالوعظ .

الاقامة : إقامة الشىء توفيته حقه من علم وعمل .

التفرق : صيرورة الشىء فرقا ، ويطلق على تشتت الشمل وتفرق الكلمة . والتفريق جعله فرقا . وهو يدل على التكثير . والفريق الجماعة المتفرقة من جماعة أخرى .

كبر : شق وعظم .

يجتبي : يصطفى .

المعنى :

الخطاب فى الآية موجه الى أمة محمد صلى الله عليه وسلم . والمعنى أن ما أمرتم به وما كلفتموه من الشريعة هو الذى طلب من أمة نوح وأمم ابراهيم وموسى وعيسى ، ووُصّوا باقامته وعدم التفرق فيه .

سبب الاقتصار على الانبياء المذكورين :

وقد اقتصر سبحانه على هؤلاء الأنبياء مع أن هذه الشريعة طلبت من أمم الأنبياء جميعهم ، لأن هؤلاء الأنبياء هم مشاهيرهم : فنوح عليه السلام يقترن اسمه بأكبر حادثة في التاريخ ، هي حادثة الطوفان ، وهو مبدأ للطور الثانى من أطوار التاريخ . وابراهيم عليه السلام جد الأنبياء جميعهم . وكلاهما بعد ذلك معروف بالحجاج وقوة الدليل .

أما ابراهيم ، فترى حجاجه في قوله تعالى : « فلما جَنّ عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربى ، فلما أفل قال لا أحب الآفلين . فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربى ، فلما أفل قال لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين . فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى هذا أكبر ، فلما أفلت قال ياقوم إنى برىء مما تشركون . إنى وجّهتُ وجهيَ للذى فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين » .

وأما نوح ، فترى حجاجه فيما يحكيه الله عنه من قوله لقومه : « ما لكم لا ترجون لله وقارا ، وقد خلقكم أطوارا ، ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا ، وجعل القمر فيهن نورا ، وجعل الشمس سراجا . والله أنبتكم من الأرض نباتا ، ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجا ، والله جعل لكم الأرض بساطا ، لتسلكوا منها سُبلا فجاجا » .

ولكل منهما بعد ذلك طريق يغاير طريق الآخر فى معاملة قومه : أما ابراهيم فيتمثل طريقه فى قوله تعالى « رب اجعل هذا البلد آمنا واجنبنى وبَنىّ أن نعبد الأصنام ، رب إنهن أضللن كثيرا من الناس ، فمن تبعنى فإنه منى ، ومن عصانى فانك غفور رحيم » . فنوه برحمة الله للعصاة ، وخاطب الله مستمطرا عليهم رحمته . وأما نوح فيتمثل طريقه مع العصاة من قومه فى قوله « رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا ، إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرا كفّارا » . فطلب من الله إفناء العصاة قطعا لدابرهم ومحوا لآثارهم .

وأما موسى عليه السلام ، فرجل من رجال الحرب والجلاد ، وقائد من

كبار القواد ، وكبير من كبار الساسة ، ونبي عظيم جاء بالتوراة فيها هـدى ونور ، وهو مبدأ للطور الثالث من أطوار التاريخ .

وعيسى عليه السلام كلمة الله ألقاها الى مريم وروح منه . والأول يذهب مذهب نوح فى الشدة ، والثانى يطلب ممن يُلطم على خده الأيمن أن يدير خده الأيسر .

الشريعة المتحدة :

والمراد بالشريعة التى أوصى بها الى هؤلاء ولم تختلف ، هى الأمور التى لابد منها لـكمال النوع الانسانى ، وهى العقيدة الصحيحة فى الله واليوم الآخر والـكتب والأنبياء ، والفضائل التى تعود على المجتمع الانسانى بالخير والفلاح : كالصدقات ، والاحسان ، والوفاء بالعهد ، والعبادات المهذبة للنفوس والمرققة للوجدان ، والتى يتبعها الخير ، وتوثق الصلات بالجماعة الانسانية .

الشريعة المختلفة :

أما صور العبادات ورسومها وما فى الشرائع من قوانين منظمة للتعامل ومحققة للعدل ، فقد اختلفت فى الشرائع حسب اختلاف استعداد الأمم ، كما هو معروف الآن فى اختلاف الشرائع الوضعية ، ولذلك قال الله تعالى فى هذا النوع الذى يختلف باختلاف العصور والاستعدادات : « لـكل جعلنا منـكم شرْعة ومنهاجا » . ولم يقتصر الأمر فى اختلاف هذا النوع على الشرائع المتعددة ، بل حصل فيه الاختلاف فى الشريعة الواحـدة تبعا لاختلاف الأمم ومقتضيات الحياة فيها ، وتبعا لاختلاف البيئات والظروف .

حكمة تقرير أن شريعة الله واحدة :

والغرض من تقرير هذه الحقيقة ، وهى أن الشريعة واحدة عند الجميع ، تثبيت المسلمين وشرح صـدورهم ، لأن الشيء إذا كان معـروفا تتابعت عليه الأمم فى العصور المختلفة ولم يكن بدعا ، كانت النفوس أكثر تقبلا له مما كان بدعة :

« قل ما كنت بدعا من الرسل وما أدرى ما يُفعل بى ولا بكم إن أتبع إلا ما يوحى الىّ » . كما أنه يقصد منه لفت نظر غير المسلمين الى الاسلام ، لأنه إذا كان ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم مما ثلا لما جاء به الأنبياء فى الجوهر ، لم يكن هناك مبرر لتركه والاعراض عنه .

وقد كرر القرآن الكريم هذه الحقيقة فى مواضع متفرقة : « إنا أوحينا إليك كما أوحينا الى نوح والنبيين من بعده » « قل يأهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم : ألا نعبد إلا الله ، ولا نشرك به شيئا ، ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله ، فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » .

ولم يكتف القرآن بتقرير هذه الحقيقة ، بل أمرنا بالنظر فيما كانوا عليه ، والاعتبار بما صاروا إليه . ولا شبهة فى أن الأديان جميعها مشتملة على الايمان بالله واليوم الآخر ، وترك الشرور والإثم والعدوان ، والتخلق بالأخلاق الفاضلة « إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون »

الايمان بالله مودع فى الفطرة :

بل إن أكثر البشر يؤمنون بخالق مدبر صاحب سلطان غيبىّ . وهذا المقدار مودع فى الفطرة ، ولا يعقل فهم هذا النظام فى العالم دونه ، ولذلك قال القرآن : « فطرةَ الله التى فَطَرَ الناسَ عليها لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيّم ولكنّ أكثرَ الناس لا يعلمون » . غير أنهم مع هذا يختلفون فى فهم صفاته وتدبيره وتقديره . وأكثر الذين يؤمنون بالله يؤمنون بالرسل الذين خصهم الله بنوع من الهدى والعرفان الفطرى ، وأيدهم بالآيات البينات ، وصارت حالة الناس بعدهم خيرا مما كانت قبلهم ، وكانت حالة من اتبعهم خيرا من حالة من فارقهم وشذ عن هديهم .

حاجة الناس الى الهدى الالهى :

والحكمة فى هذه الشرائع الالهية أن الانسان إذا ترك الى مداركه الحسية ونظرياته العقلية ، ضل وكره الحياة ، وكان أشقى من أنواع الحيوان . وشقاؤه يكون من ناحية العقل نفسه . فقد دلت التجارب على أن العقل غير مؤيد بالشرع الالهى يذهب مذاهب شتى ، منها الصواب ، ومنها الضلال . وهو فيما عدا المحسات والماديات ضلاله أكثر من صوابه . وهذه آراء العلماء فى الفلسفة والأخلاق يشبه بعضها هذيان المحموم ، وبعضها لا يدرك له محصل على كثرة ما يقولون من مقدمات وبراهين . وهذه مذاهب الاجتماع قديمها وحديثها لم تسعد الأمم بها . فلا بد من هداية تصدر عن المعصوم يحملها من عند الله العلى الحكيم .

وقد دلت التجارب أيضا على أن الأمم التى عملت بالهدى كله أو بعضه سعدت بمقدار ذلك الهدى الذى عملت به .

وأما أنه لولا الدين لما احتمل الانسان هذه الحياة ، فانها على قصرها مملوءة بالمصائب والويلات : فمن فقر مدقع الى مرض مزمن ، ومن فقد الأهل والعشيرة الى فقد العزة والجاه ، ومن شرف رفيع الى ذلة ومهانة . واحتمال هذا كله إذا لم يكن أمام الانسان أمل ينتظره ، وحياة دائمة فيها سعادة دائمة ، ليس فى طاقة الانسان . فالاعتقاد بالآخرة يرفه العيش ، ويجعل المؤمن فى سعادة نفسية ، ويقويه على احتمال الصعاب ، وعلى الصبر على معاشرة الناس ، فلا بد من نظام يعتقد فيه العصمة من الخطأ ، ويهدر معه حكم العقل إذا حصل تعارض بينهما ، فان دائرة العقل محدودة ، وهو قاصر عن إدراك خفايا المستقبل .

التدين منظم للحرية وليس مقيدا لها :

وإذا قيل إن التدين مقيد للحرية ومانع من التمتع باللذات فكيف تكون فيه السلوى والعزاء ؟ فالجواب : أن الإسلام أباح الطيبات وحرم الخبائث ، ولم يحظر من اللذائذ إلا ما يضر الانسان ، وليست السعادة فى حرية البهائم ،

بل فى حرية يسبح بها فيما فيه خيره وسعادته ، ويحظر عليه فيها ما فيه ضرره وشقاؤه .

بناء المدنية على الدين لا على العقل :

وقوام آداب الأمم وفضائلها التى قامت عليها صروح المدنية الحقة ، مستند الى الدين . وبعض العلماء يحاولون تحويلها عن أساس الدين وبناءها على أساس العقل والعلم . غير أنه لاشبهة فى أن الأمم التى تروم هذا التحول تقع فى اضطراب وفوضى لا تعلم عاقبتهما . وليس من الميسور أن تبنى للعامة قواعد الفضيلة على أساس علم الأخلاق ، أو أية قاعدة علمية أخرى ، ولكن من الميسور دائما أن تبنى قواعد الفضيلة على أساس العصمة للدين . فالذى يحاوله العلماء وهم وخيال.

ولما بين الله تعالى أن أساس الدين واحد ، طلب منهم بقوله : « أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه » إقامته وعدم التفرق فيه . طلب المحافظة على الدين جميعه ، وذلك يكون بفهمه والعمل به ، بحيث لا يخل العبد بشىء منه ، وبحيث يكون العمل موجها الى الله العليم الحكيم الذى لا يأمر إلا بما فيه الإصلاح ولا ينهى إلا عن الشرور والآثام . وطلب سبحانه أن يكون الناس متوحدين فى الدين وفى إقامته ، غير متفرقين فى العلم به والعمل عليه .

الاسلام والوحدة :

وقد مدح الله الوحدة وذم التفرق ، وأنذر من يحيد عن الوحدة فى مواضع من كتابه العزيز « واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا ، وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها ، كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون » . « ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم » . « ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم ، واصبروا إن الله مع الصابرين » . وفى الحديث الشريف : « لا ترجعوا بعدى كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض » .

وفى الحق أنه ما استقامت أمة على سنن الرشاد ولا تم لها نظام ولا بلغت ما تريد من المجد والعز إلا بالوحـدة . وما عزت أمة وهابها الأعداء ولا قام فيها عدل وجرت أمورها على الطريق السوى إلا بالوحدة . وأعظم الأمم قوة وأكثرها منعة هى الأمم التى نسيت الجنسيات التى تسللت منها ونسيت العصبيات واستحالت كلها الى أفرادمتجانسة فى اللغة والدين والعقيدة والغاية . والأمة التى تشعر الطوائف فيها بأصولها التى اشتقت منها ، وتشعر بأن هناك فارقا بين طائفة وأخرى ، لا تزال تعانى الشدائد .

التفرق يوزع القوى ، فشخص يبنى وشخص يهدم ، وشخص يهاجم وآخر يدافع . أما الوحدة فتجمع القوى ، وتوجد التعاون بين الافراد لبلوغ الغايات وتسنم أرفع الدرجات . والتفرق أمارة من أمارات عدم النضوج ، فان العقل الناضج يلازمه عادة حب الانصاف ، حتى إذا طرح شىء للبحث وكانت هناك عقول ناضجة واتجاه للحق لا تصده الأهواء ، لايلبث الحق أن يظهر مشرقا أبيض الوجه ، ولا يلبث الخلاف أن يزول .

وقد عمل الاسلام على الوحدة فى كثير من المظاهر ، فخليفة واحد تتجه اليه الأنظار ويكون قبلة الجميع ، أفضل من خلفاء متعددين . وصلاة الجماعة خلف إمام واحد يضمهم ويوحدهم ، أفضل درجات من الصلاة مع التفرق . وقد أمر المسلمين بالاجتماع فى الجمعة والعيدين والحج . كل ذلك تنمية للوحدة وتقوية لها . وقد هدم نظام الجنسيات والعصبيات ، وساوى بين الجميع فى الأخوة ، وجعل الفضل للتقوى . وهكذا عند التأمل نجـده يرمى الى الوحدة فى جميع التكاليف . ذلك لأن الوحـدة أساس الاصلاح فى الحياة الدنيا ، وأساس العزة والسلطان .

موقف المشركين من الدعوة المحمدية :

« كبر على المشركين ما تدعوهم إليـه ، الله يجتبى اليـه من يشاء ويهدى إليه من ينيب » :

شق على المشركين دعوة النبي صلى الله عليه وسلم وترك ما كانوا يعبدون .
نعم : شق عليهم هذا وظهرت آثاره فى أقوالهم وأعمالهم ، فقد جالدوه وأعنتوه ، وآذوه بأنواع من الأذى صبر عليها بتثبيت الله إياه « ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئا قليلا » . وكتب السير مملوءة بأنواع الأذى وما لاقاه صلى الله عليه وسلم من شر المشركين . وقد آذوه بالقول فقالوا : « أجعل الآلهة إلها واحدا ؟ إن هذا لشيء عجاب . وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم ، إن هذا لشيء يراد ، ما سمعنا بهذا فى الملة الآخرة ، إن هذا إلا اختلاق ، أأنزل عليه الذكر من بيننا » .

ورموه بالسحر وبالجنون ، وبأنه يحكى أساطير الأولين ، وطالبوه بأشياء لا يصدر طلبها إلا عن حمق وجهالة . كل هذا فعلوه لأنهم دعوا الى الحق فعز عليهم ترك ما كان عليه الآباء وقالوا : « إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون » .

وقد عزّى الله نبيه الأكرم بقوله « الله يجتبي إليه من يشاء ويهدى إليه من ينيب » فـلا تجزع واصبر : إنك لاتهدى من أحببت ولـكن الله يهدى من يشاء ، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات .

ومعنى ذلك أنهم تركوا دعوتك لأن الله لم يخترهم ولم يصطفهم للهداية ، ولم يخصهم بالفيض الإلهى الذى به تقبّـل نعمة الدين ، ولم يوفقهم للإقبال عليه والإنابة إليه .

وقد يكون المعنى أنهم تركوا الانقياد كبرا وأنفة لأنهم قالوا : أ ألقى عليه الذكر من بيننا بل هو كذاب أشر . وقالوا : لولا نُزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم . فقال الله لهم : إن الله يصطفى من عباده للرسالة من يشاء للحكمة التى يعلمها . الله أعلم حيث يجعل رسالته : « أهم يقسمون رحمة ربك !

نحن قسمنا بينهم معيشتهم » . فالاصطفاء شأن من شئون الله يضعه حيث شاء ، ولا يتقيد بما تقدرون من أحساب وأنساب .

تفرق أتباع الأنبياء :

« وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم » :

هـذا خاص بأتباع الانبياء ، وما قبله كان خاصا بالمشركين . فان الذين لم يقيموا الدين فريقان : فريق المشركين وقد بين الله تعالى أنهم تركوا الدعـوة أنفة وكبرا ؛ وفريق أهـل الكتاب وقد بين الله فى هـذه الآية أنهم تركوا الدعوة بغيا وظلما . والاختلاف كما حصل بين أتباع نبي وأتباع نبي آخر ، حصل فى أتباع النبي الواحد ، وكان الخلاف بعد وجود الحجة ، و بعد وجود الدليل الذي هو سبب من أسباب العلم . والخلاف بعد وجود الدليل لا يكون إلا ظلما و بغيا .

قد يكون المعنى : وما تفرقوا ولم يؤمنوا بالاسلام إلا بعد أن قامت الحجة عندهم من كتبهم ومن حال النبي صلى الله عليه وسلم على صدقه فى دعواه .

وقد يكون المعنى : إن أتباع كل نبي تفرقوا فى دينهم وذهب كل فريق الى رأى يخالف رأى الآخرين ظلما و بغيا ، طلبا للرياسة وحبا فى التنافس ، فدعا كل فريق الى رأيه وقبح رأى الآخرين ، ونشأ عن ذلك العداوة والبغضاء ، ووجد الظلم والبغى .

أسباب الاختلاف :

وقد يكون من الحق أن نعرض هنا لبيان شيء من أسباب الخلاف الذى يقع بين أتباع النبي الواحد فى فهم دينهم ، فنقول :

إن الخلاف يحدث أولا من تعدد الآراء بسبب تعدد الأفهام . وقد يكون ذلك عن حسن نية وإخلاص طوية فى حب الوصول الى الحق . و بعد أن توجد الآراء المتعددة يعتقد كل فريق أنه على الحق ، ثم قد يلوح الحق فى جانب فيكبر

على بعض المتخالفين فى الرأى أن يرجع عن رأيه الى رأى غيره مع قيام الدليل على خلاف رأيه ، وقد تكثر هـذه الحال وتشتد بعد أن يوجـد للرأى أتباع وأنصار ، ويكون التمسك بالرأى أشد لدى الأنصار بعد أن يموت صاحب الرأى ويبقى المقلدون .

التعصب للرأى :

فى هذه الأحوال يصعب جـداً الرجوع عن الآراء إلا على من وهبه الله حب الانصاف وكان الحق عنده أغلى مما يظنه شرفا وكرامة عند الأتباع وعند الناس . ومن عادة الأتباع أن يكونوا مقـلدين لا يفهمون الدليل إذا عرض عليهم ، أو تغلبهم حمية الجاهلية فيتعسفون فى التأويل ، فاذا عرض الـكتاب عليهم أو ّلوه حتى يردوه الى رأيهم ويكون دليلا لهم أو لاينافى رأيهم ، وكذلك يفعل الآخرون . إذ ذاك يصير الـكتاب تابعا للآراء لامتبوعا ، ويصير محكوما بعد أن كان حاكما .

هذه الحالة لايمكن أن تزول الا إذا أخلص الناس فى حب الحق ، وراعوا حرمة الـكتاب ، وآمنوا بأن الحق أغلى من الآراء والأفهام . وإذا لم توجد هذه الخشية من الله ساءت حال المختلفين ، وأصبح أهـل الدين الواحد شيعا وأحزابا يضرب بعضهم رقاب بعض .

قاعدة القرآن عند الاختلاف :

ولا منجى من هذه الأحوال إلا باتباع قاعدة القرآن الـكريم . فقد قرر وجوب الرجوع اليه عند الاختلاف : « فإن تنازعتم فى شىء فردوه الى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر » . وقضى أن عدم الرد اليـه مناف للايمان ، وقال فى آية أخرى : « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكّموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما » . وفى آية أخرى « ألم تر الى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل اليك وما أنزل

من قبلك ، يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيداً . وإذا قيل لهم تعالوا الى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدوداً » . فهذه الزواجر البالغة تحتم على المسلمين أن يعتبروا ويتنبهوا ، ويفتحوا أعينهم لكتاب الله وسنة رسوله ، وأن يردوا الخلاف اليهما .

اختلاف المسلمين :

وقع المسلمون فيما وقع فيه أهل الكتاب من قبلهم : تفرقوا فى العقائد ، وتفرقوا فى الفروع . ولو أنهم حكّموا قاعدة القرآن وردوا الى الكتاب والسنة من غير تعسف فى التأويل ، لضاقت دائرة الخلاف ، ولما بقيت متسعة — كما نراها اليوم — أكثر من ألف سنة . وقد ضلت الأمة الطريق ، ولعبت بها الأهواء ، واختلت الأعمال ، وحل بها الشقاء ، وسلط الله عليها من استبد بها . وقد منّ القرآن عليها بأنها كانت متفرقة فألف بينها ، وكانت مستضعفة فمكن لها فى الأرض وأورثها ديار الأقوياء . لكنها كفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون . ونسأل الله لها التوفيق الى هدى القرآن .

ولا يفوتنا فى هذا المقام أن نذكر ما نقله الامام الرازى عن شيخه فى موقف المقلدين من النصوص التى تكون مخالفة لآراء أئمتهم عند تفسيره لقوله تعالى : « اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله » قال : قال شيخنا ومولانا خاتمة المحققين والمجتهدين رضى الله عنه: قد شاهدت جماعة من مقلدة الفقهاء قرأت عليهم آيات كثيرة من كتاب الله فى بعض المسائل ، وكانت مذاهبهم بخلاف ذلك ، فلم يقبلوا تلك الآيات ، ولم يلتفتوا اليها ، وبقوا ينظرون الىّ كالمتعجبين — يعنى كيف يمكن العمل بظواهر هذه الآيات مع أن الرواية وردت عن سلفنا على خلافها ! وقد شكا الغزالى وغيره أيضا من هذه الأحوال . نعوذ بالله من الخذلان .

غرور المسلمين بالعقل والفلسفة :

وجد الخلاف بين المسلمين فى العقائد والأحكام الفقهية ، ووجد عندهم مرض آخر هو الغرور بالفلسفة وتأويل القرآن ليرجع إليها ، وتأويله لبعض النظريات العلمية التى لم يقر قرارها ، وذلك خطر عظيم على الكتاب . فإن للفلاسفة أوهاما لا تزيد على هذيان المصاب بالحمى . والنظريات التى لم تستقر لا يصح أن يرد إليها كتاب الله .

انحصار دائرة العقل :

وهناك مناطق فى الخلق لا يصل إليها العقل . والى الآن لم يعرف الانسان كل أجزاء جسمه على صغر ذلك الجسم ، فكيف يرق الى دائرة ليس بينه وبينها صلة ؟ فعلى العقل أن يقف عند حده ، ويعرف اختصاصه . وعلى العقلاء أن يسعوا فى تقريب هوة الخلاف ، فقد اتسع الخلاف واشتد حتى مس عقيدة التوحيد نفسها عند من يقرّ بها . فقد أشركوا مع الله فى الدعاء وهو أساس العبادة وركنها الأعظم ، وأشركوا مع الله فى الاستعانة ، والتقرب بالنذور ، والقربان ، والطواف ، والتمسح !

ليس كل خلاف مذموما :

ويجب أن يعلم فى هذا المقام أنه ليس كل خلاف مذموما ، فان الخلاف الذى لم يبن على الهوى يعذر صاحبه ، ولكن مثل هذا الاختلاف لا يُحدث شرا ، كما كان الاختلاف بين الصحابة والسلف الصالح رضى الله عنهم . انظر الى خلافهم فى البسملة مثلا : فبعضهم يقول إنها آية من الفاتحة تفرض قراءتها فى الصلاة . وبعضهم يقول بخلاف ذلك . ومع أنها مسألة خطيرة فانه لم يحدث بينهم سوء من ذلك الخلاف ، لأن الإنصاف كان موجودا ، والرمى بالكفر لم يكن معروفا إلا عند تكذيب الله ورسله .

والخلاصة : أن حقيقة الدين هي الايمان بالله واليوم الآخر ، وأن التفرق يجيء من الجهل ، ومن التقليد ، ومن حب الرياسة . والاسلام يطالب الناس جميعهم بالتوحيد وعدم التفرق . ولا يصلح حال المسلمين إلا بالرجوع الى الكتاب . ولا تقوم لهم قائمة إلا بوحدة تضم شملهم حتى يكونوا كما ورد فى الحديث الشريف « مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » . « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا » . لذلك فرض الاسلام الدعوة الى الدين الحق ، وفرض الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وفرض الرد الى الله ورسوله عند الاختلاف .

ومتى عزت الأمة بالوحدة ، وشعر كل فرد أن الفرد الآخر من المسلمين جزء من الوحدة يكمله ، ظهرت النتائج مشرقة لامعة : من سلطان ، ورهبة ، وارتفاع كلمة ، بحيث إذا أهين فرد من أفراد الامة ألم له الباقون ، وإذا أهين فى قطر بعيد هبت الأمة تطالب بنصره والانتقام له . أما الأمة التى لم تكتمل فيها الوحدة فلا يظهر فيها أثر التعاون والتعاضد .

« ولولا كلمة سبقت من ربك الى أجل مسمى لقضى بينهم » :

الكلمة هي أن الله وعد بعدم معاجلتهم بالعذاب ، ولولا هذه الكلمة لاستأصلهم وقضى بينهم بهلاكهم .

عاقبة التعصب للرأى :

« وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم لفى شك منه مريب » :

بينا من قبل أسباب الاختلاف بين أتباع الانبياء ، وأن هذا الاختلاف متى استقر أصبحت المذاهب دينا مع أن بعضها يخالف ما فى الكتاب . عند حدوث هذه الحالة يعرض الشك فى الكتاب نفسه عند من يجيء بعد

استقرار هذه المذاهب ، لأن أصحاب كل مذهب يدّعون أنه يوافق الكتاب ، وبعض هذه المذاهب لا يتفق والكتاب ، ولا ينطبق على العقل والمصلحة . إذ ذاك يتعرض الكتاب نفسه للشك فيه عند مرضى القلوب وضعفاء الايمان.

والله ولي الهداية ، وبه العون والتوفيق .

الدرس الرابع

ألقاه فضيلته مساء يوم الخميس التاسع والعشرين من شهر رمضان بمسجد السلطان الحنفي بالقاهرة

قال فضيلته :

بسم الله الرحمن الرحيم .

قال الله تعالى : (قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ : أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ، وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ، وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ ، نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ، وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ، وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ، ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ . وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ، وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ، لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ، وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى ، وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ، ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ . وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ، ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)

(الآيات ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٥٣ من سورة الأنعام)

أثر هذه الآيات في نفس العربي . المأثور في فضل هذه الآيات . ماقصه الله عن المشركين قبل هذه الآيات . ما حرمه الله من الحيوان . موقف الفقهاء من آية تحريم الحيوان . الاحتجاج بالمشيئة . طريقة القرآن في الرد عليه . الحجة البالغة . الوصايا العشر . سبيل الحق وسبل الباطل .

أثر هذه الآيات في نفس العربي :

روى أن النبي صلى الله عليه وسلم لما أمر بعرض نفسه على قبائل العرب ، خرج الى منى ومعه أبو بكر وعلى ، فوقف على مضارب القوم ، وكان فيهم مفروق بن عمرو ، وقد غلب على القوم لسانا وبيانا ، فالتفت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال له : إلام تدعو يا أخا قريش ؟ فقال : أدعو الى توحيد الله وأنى رسوله . فقال : وإلام ؟ فتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآيات . فقال مفروق : وإلام تدعو أيضا يا أخا قريش ؟ فتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى ، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى » . فقال مفروق : ما هذا من كلام أهل الأرض ولو كان من كلامهم لعرفناه ، دعوت والله يا قرشي الى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال ، ولقد أفك قوم كذبوك وظاهروا عليك — وأفك قوم : صرف عقلهم .

المأثور في فضلها :

وعن ابن مسعود رضى الله تعالى عنه : من سره أن ينظر الى وصية محمد التي عليها خاتمه فليقرأ هؤلاء الآيات « قل تعالوا — الى : لعلكم تتقون »

وعن ابن عباس : هذه آيات محكمات لم ينسخهن شيء من الكتب ، وهن محرمات على بنى آدم كلهم ، وهن أم الكتاب ، من عمل بها دخل الجنة ، ومن تركها دخل النار .

ما قصه الله عن المشركين فى التحليل والتحريم :

وقبل شرح هـذه الآيات نقول : إن الله سبحانه وتعالى قص علينا فى الآيات السابقة من أول قوله « وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبا » الى قوله : « وهم بربهم يعدلون » بعضَ النظم التى كان عليها أهل الشرك فى الحرث والأنعام ، وقتل الأولاد ، وفى التحليل والتحريم من غير إذن الله . وقص علينا من ذلك ما يأتى :

أولا — أنهم جعلوا لله نصيبا مما خلق من ثمار الزروع وغلاتها ونتاج الأنعام ، وجعلوا لشركائه من الأصنام والأوثان نصيبا ، وفرقوا بين النصيبين فقالوا هذا لله وذلك للشركاء . وكانوا يحوّلون أحيانا ما جعلوه لله الى الشركاء بذبح النسائك عندها ، والانفاق على سدنتها . أما ما كان للشركاء فلم يكن يحول الى الله . وفى ذلك يقول الله تعالى : « ساء ما يحكمون » لأنهم لم يكفهم أن أشركوا بل شركوا معه فى القسمة وفضلوا عليه الشركاء .

ثانيا — أن شركاءهم زينوا لهم قتل أولادهم اتقاء للعار فى البنات ، وخوف الفقر فى البنين والبنات ، ففسدت فطرهم ، وفقدوا عاطفة الرحمة من قلوبهم ، وحلت محلها وحشية قاسية ترضى بنحر الولد ودفن البنت .

ثالثا — أنهم كانوا يقطعون بعض أنعامهم وأقواتهم ، ويحجرون التصرف فيها إلا على آلهتهم التى خصوها بذلك .

رابعا — أنهم كانوا يحرمون ظهور بعض الأنعام فلا تركب ولا يحمل شىء عليها . من ذلك : البَحيرة ، والسائبة ، والوصيلة ، والحام . فالبحيرة الناقة التى نتجت خمسة أبطن آخرها ذكر ، فتشق أذنها ولا تركب ولا تطرد عن ماء ولا مرعى . وكان الرجل يقول : إذا قدمت من سفرى أو برئت من مرضى فناقتى سائبة ، فتسيب وتترك ولا ينتفع بها . فهذه السائبة . وإذا ولدت الشاة أنثى فهى لهم ، فإن ولدت ذكرا فهو للإله ، فإن ولدت ذكرا وأنثى قالوا وصلت الأنثى أخاها فلم يذبحوه للإله . فهذه هى الوصيلة . وكان الفحل إذا ولد له عشرة أبطن قالوا : حمى ظهره فلا يركب ولا يحمل عليه . فذلك هو الحامى . ولم

تذكر هذه فى هذه الآيات ، وإنما ذكرت فى آية المائدة « ما جعل الله من بَحيرة ولا سائبة ولا وَصيلة ولا حامٍ » .

خامسا — أنه كان لهم أنعام لا يذكرون اسم الله عليها فى شأن من شئونها ، لا فى الركوب ، ولا فى الحلب ، ولا فى الحمل والسحب ، ولا يحجون عليها .

سادسا — أنهم كانوا يخصون لبن البحيرة وما أشبهها بالذكور ، فإذا ماتت أكلها الذكور والاناث . وإن ولدت ذكرا حيا جعلوه للذكور ولا تأكل منه الاناث ، وإن ولدت أنثى تترك للنتاج .

وقد سفه الله أحلامهم فى ذلك كله فقال : « قد خسر الذين قتلوا أولادهم سَفَها بغير علم وحرّموا مارزقهم الله افتراء على الله ، قد ضلوا وما كانوا مهتدين » .

وبين أنه هو الذى خلق الزرع والبساتين لفائدة الناس ، فهى حلال لهم ، ولم يجعل لأحد فيها حقا إلا حق الله وهو حق الصدقة ؛ وأنه خلق الأنعام للركوب والذبح ، وأحل ذلك كله ، وأنه هو الرزاق ، وهو الذى يمنح الرزق ، فلا يجوز أن يعتدى على الأولاد بالقتل خوف الفقر والحاجة .

بعد أن بين الله هذه الأحوال ، ذكر محرمات الطعام فى آية ، وذكر المحرمات الأخرى فى هذه الآيات التى تفسرها . أما محرمات الطعام فقد ذكرها فى آية « قل لا أجد فيما أوحِيَ الىّ محرّما على طاعم يَطعمه ، إلا أن يكون ميتةً ، أو دما مسفوحا ، أو لحم خنزير فإنه رجس ، أو فسقا أهِلّ لغير الله به ، فمن اضطر غير باغ ولا عاد فان ربك غفور رحيم » .

ما حرمه الله من الحيوان :

حرم الله فى هذه الآية الميتة ، وتشمل المتردية ، والنطيحة ، وأكيلة السبع إذا لم تدرك تذكيتها قبل الموت ، وحرم الدم المسفوح ، وحرم لحم الخنزير ،

وحرم ماذبح لغير الله ، ورخص للجائع الذى لايجد قوتا حلالا يأكل منه أن يتناول من هـذه المحرمات قدر الضرورة بدون تعد ، على أن لا يكون باغيا قاصدا الأكل لذاته ، بل قاصدا دفع الضرورة وبقاء الحياة .

موقف الفقهاء من آية التحريم :

وفى حصر محرمات الحيوان فى هذه الأربعة خلاف كثير بين الفقهاء . فقد رأى البعض الحصر فى هذه الأربعة ، ورأى بعض إضافة الحمر الأهلية ، وأضاف آخرون سباع الطير والوحش . وموضع القول فى ذلك فروع الفقه .

الاحتجاج على الشرك والمعاصى بالمشيئة :

قص الله علينا ما سبق ، وقص شبهة يشترك فيها مع المشركين غيرهم ، ذكرها فى قوله : « سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولاحرمنا من شيء . كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا ، قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ؟ إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون ! قل فلله الحجة البالغة ، فلو شاء لهداكم أجمعين » .

ومحصل هذه الشبهة أن الله شاء هذا الشرك ، وشاء أن نحرم هذه المحرمات من الزروع والحيوان ، بل شاء أيضا كل ماعصى به ، ومتى كان ذلك بمشيئته كان راضيا عنه لأنه لايقع فى الكون شيء يكرهه . وأيضا فان الشيء الذى يشاؤه الله لابد أن يقع ، فالعبد مضطر فيه ومجبور . وعلى ذلك فلا يوجه لوم على الشرك والمعاصى ، لأن الانسان مضطر فيهما ، ومع أنه مضطر ، فهما برضا الله سبحانه وبمشيئته .

طريقة القرآن فى إبطال تلك الشبهة :

هذه شبهة من شبه إبليس وجنده قصها الله فى كتابه العزيز ، وبين بطلانها بطرق : منها أنه بين لهم أن الذين كانوا قبلهم كذبوا مثلهم فسلط عليهم عذابه ،

وأذاقهم بأسه ونكاله ؛ ولولا أنه غير راض عن هذه المعاصي وأنهم مختارون فيها لما فعل معهم ذلك لأن هذا يعد ظلما ، والمخاطبون لا يرضون بنسبة الظلم إليه . ثم بين لهم أنهم بهذه الشبه يخرصون ويظنون وليس بيدهم حجة ، لأن الحجة قائمة على خلاف مزاعمهم (وستأتى) . ثم تحداهم فقال لهم : هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ؟ هلم شهداءكم الذين يشهدون أن الله حرم هذا . وقال: فلله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين .

الحجة البالغة :

والحجة البالغة هى أن لله تعالى سننا فى الكون والخلق ، وقد كانت سنته فى خلق الانسان أن جعله عاقلا مستدلا مناظرا ، وأعطاه وسائل الاستدلال والنظر ، وهداه النجدين : طريق الخير ، وطريق الشر ، وبعث اليه الرسل يرشدونه ويبينون له الحلال والحرام ، فقطع عذره ولم يبق له تعلة إذا أشرك أو عصى ، فذلك بمحض اختياره . واختياره أمر ضرورى مقطوع به ، عليه قامت الشرائع ، وعليه وضعت القوانين ، ورتبت الأجزية ، ووضعت قواعد الأخلاق للهداية . نعم : إن الله تعالى علم ذلك ، علم أنه سيختار هذه المعصية . والعلم فى مرتبة الانكشاف لا تأثير له ، فلا يكون سببا للجبر ، ولا يمكن أن يكون علم الله على خلاف ذلك لأنه يكون جهلا مستحيلا على الله . فهذا العلم الانكشافى التابع لاختيار الانسان تجىء الارادة والمشيئة على وفقه ، ولا يمكن أن تكون على خلافه . فعلم الله ومشيئته ليستا من أسباب الجبر ، ووجودهما لا يدل على الرضا ، لأنه لا يرضى لعباده الكفر ، ووقوع ما يريده ولا يرضاه لا شىء فيه . ولو شاء الله هداية الناس جميعا لهداهم ، على معنى أنه يخلقهم خلقا آخر على طبيعة أخرى مثل طبيعة الملائكة ، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون . ولكن الانسان إذ ذاك لا يكون هذا المخلوق الذى أريد أن يكون صاحب اختيار ، وأريد أن يكون خليفة فى الأرض تكون سعادته بإرادته وشقاؤه بإرادته ، فهذه طريقة فيها منتهى الكمال للنوع ، وإن لزمها نقصان فى بعض الأفراد .

نعود بعد هذا الى شرح الآيات فنقول : بعد أن بيّن الله سبحانه ما كان عليه المشركون ، ودحض حججهم ، وزيف شبههم ، وبعد أن بيّن المحرمات من أنواع الحيوان ، بيّن فى هذه الآيات أصول الفضائل والبر ، وببيانها تعرف أصول المحرمات . بين ذلك فى عشر وصايا جاء بعضها بطريق النهى ، فتكون الفضيلة فى الضد ، وجاء بعضها على طريق الأمر فيكون المحرم ضد ما أمر به . هذه الوصايا العشر : منها الفضيلة فى العقيدة ، والفضيلة فى القول ، والفضيلة فى الفعل ، والفضيلة فى الأموال . وسيتضح ذلك من بيانها :

الوصايا العشر :

« قل تعالوا أتل ماحرم ربكم عليكم » :

أصل الفعل تعال وتعالوا : الأمر ممن كان فى مكان عال لمن دونه أن يصعد إليه ، ثم استعمل بعد ذلك فى الأمر مطلقا . والتلاوة : القراءة .

ومعنى ذلك : قل أيها النبى لهؤلاء الذين وصفت لك أحــوالهم وما كانوا عليه من اتباع للظن ، وتحريم وتحليل بالهــوى وشرك : أقبلوا أبلغكم عن الله سبحانه ، وهو صاحب الحق المكلِّف فى العبادة وفى التشريع ، يحلل ويحرم طبقا للحكمة ، ومراعاة لمصلحة العباد .

والسر فى تكليفه تلاوة ما حرم الله ، الإرشاد الى أن وظيفته ليست إلا التلاوة والبلاغ ، لأن التحليل أو التحريم ليس إلا لله « ولا تقولوا لما تصف ألسنتُكم الكذبَ هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب ، إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون ، متاع قليل ولهم عذاب أليم » .

وقد بين الله سبحانه هذه المحرمات ، وهى :

أولا ـ « ألا تشركوا به شيئا » :

يعنى لا يجعلوا شيئا من الأشياء شريكا له مستحقا للعبادة ، له حق التحليل

والتحريم ، وحق تقديم القربات ، وحق الدعاء والاستعانة به ، سواء أكان ذلك الشيء عظيم القـدر كالشمس والقمر والـكواكب ، أوعظيم القدر فى المعنى كالأنبياء والصالحين . فدعوا الأصنام والأوثان وكل شيء مخـلوق فان كل من فى الوجود سواه وإن كان عظيما بالنسبة الى موجود آخر ، فهو صغير بالنسبة الى ذاته : « إنْ كلُّ من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمنِ عبدا » . وعن ابن عباس . إن وَدًّا وسُواعاً ويَغُوثَ ويَعُوقَ ونَسْراً وهى الأوثان التى كانت فى قوم نوح أسماء رجال صالحين من قوم نوح ، فلما ماتوا نصبوا الى مجالسهم التى كانوا يجلسون فيها أنصابا بأسمائهم ، وعند تقادم الزمان عُبدت بذبائح تذبح منذورة وغير منذورة ، واستشفع بها ودعيت .

ثانيا ـ « وبالوالدين إحسانا » :

يعنى وأحسنوا الى الوالدين إحسانا كاملا لا شائبة فيه لإساءة وإن كانت صغيرة ، سواء أكانت الاساءة فى القول أم فى الفعل . وقد جاءت هذه الوصية بجوار النهى عن الشرك ، فدل ذلك على مكانتها وعظم شأنها . وقد قـرر الله سبحانه طلب الاحسان بالوالدين وقرنه بالتوحيد فى مواضع كثيرة . ففى سورة النساء « واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحسانا » . وفى سورة الاسراء « وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا » . وفى سورة العنكبوت « ووصينا الانسان بوالديه حسنا وإن جاهداك لتشرك بى ماليس لك به عـلم فلا تطعهما » . وفى سورة لقمان « ووصينا الانسان بوالديه حملته أمه وهْناً على وهن ، وفصاله فى عامين أن اشكرلى ولوالديك الىّ المصـير . وإن جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفا ».

وفى السنة أحاديث كثيرة فى فضل البر بالوالدين ، والتحذير من إساءتهما . من ذلك ما روى عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه : « سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم : أىالعمل أفضل ؟ قال : الصلاة علىوقتها . قلت : ثم أى ؟

قال : بر الوالدين . قلت : ثم أي ؟ قال : الجهاد فى سبيل الله » . فقدم بر الوالدين على الجهاد الذى هو أكبر الحقوق العامة على الانسان .

وسبب ذلك أن حق الوالدين يتلو فى الدرجة حق الله ، لأن الله جل شأنه هو الخالق ، والوالد سبب ظاهرى من أسباب الخلق والوجود . ثم إنه احتمل عناء التربيـة والانفاق ، وتولى إسعاد الولد جهد الطاقة كما يعلم وكما يقـدر ، وذلك بالغـريزة الفطرية . فالوالد مستحق للبر ، ومستحق للشكر . ولذلك قال الله : « أن اشكرلى ولوالديك الى المصير » .

ثالثا — « ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم » :

نهى الله عن قتل الأولاد خشية الفقر ، وبين أن ذلك حمق وسفاهة وجهل لأنه خروج على الفطرة ، فلا يوجد شخص لم تفسد فطرته يرضى بقتل ولده ، لأنه إن رضى بذلك كان أحط درجات عن الوحـوش والأنعام والسوائم . وأيضا فان الذى يؤمن بإله رزاق يمنح الرزق إن أراد ويمنعه إن أراد « إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين » « أم من هـذا الذى يرزقكم إن أمسك رزقه » « وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها ويعـلم مستقرها ومستودعها ، كل فى كتاب مبين » إن الذى يؤمن بالله هكذا لايقدم على ذبح ولده خشية الفقر والإملاق .

رابعا — « ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن » :

الفاحشة فى الأصل : ما اشتد قبحه من الذنوب . والمراد منها هنا مثـل المراد من قوله تعالى : « وذروا ظاهر الاثم وباطنه » . وهو كل ما حرمه الله سبحانه مما كان ضارا بالأفراد فى أنفسهم أو أموالهم أو عقولهم أو دينهم أو عرضهم ، أو ضارا بالجماعات فى مصالحهم السياسية والاجتماعية ، فيشمل المحرمات من أعمال الجوارح : كالسرقة ، والزنا ، وقتل النفس ، وشرب الخمر . ويشمل أعمال القـلوب كالنيات ، والحسد ، والحقـد ، والضغينة ، وتدبير المكايد لخلق الله . نهى الله عن ذلك كله سرا وعلنا ، ظاهرا وباطنا .

خامسا — « ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق » :

حرم الله قتل النفس مطلقا لا فرق بين مسلم وذمى، ومعاهد ومستأمن، لأن لهؤلاء مع المسلمين عهدا يجب الوفاء به، ولأهل الكتاب ما للمسلمين وعليهم ما عليهم متى كان لهم عقد الذمة. وفى الحديث الشريف: «من قتل معاهدا لم يرح رائحة الجنة، وإن ريحها ليوجد من مسيرة أربعين عاما». وفى رواية: «من قتل معاهدا له ذمة الله وذمة رسوله، قد أخفر بذمة الله فلا يرح رائحة الجنة، وإن ريحها ليوجد من مسيرة خمسين عاما». واستثنى الله القتل بالحق، وهو معروف عند الفقهاء: مثل قتل النفس، والردة، ومحاربة الله ورسوله.

بعد أن بين الله تعالى هذه الوصايا قال:

« ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون » :

والوصية ما يعهد الى الإنسان عمله من فعل خير أو ترك شر، مقترنا ذلك بما يرجى تأثيره من موعظة.

والمعنى: أن الله وصاكم بهذه الأشياء لينبه عقولكم حتى تستعملوها فتدركوا أن الله اللطيف الخبير لا ينهى إلا عن شر ضار، وأنه خلق الخلق وكلف الإنسان فى الأرض وسلطه عليها يتمتع بما شاء منها ما عدا الخبائث وما كان ضارا، وأن هذه الأشياء ظاهرة القبح يدرك قبحها بالعقل بعد التأمل، وحكم الله فيها مطابق لمقتضى العقل الصحيح.

سادسا — «ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده»:

نهى الله عن أكل مال اليتيم. وقد أبرز العبارة عن ذلك فى طريق أبلغ فى الدلالة على الغرض، فنهى عن الاقتراب منه فضلا عن أكله، إلا فى الحالة التى تكون أحسن لليتيم، بحيث يكون التعامل معه محققا للمصلحة له. فولى اليتيم مطالب أن يستثمر ماله على أحسن الوجوه وأفضلها، والذى يتعامل مع ولى اليتيم بالبيع والشراء لليتيم مطالب بأن يكف نفسه عن تصرف يعود

على اليتيم بالضرر . وفى هذا المعنى قول الله تعالى : « ويسألونك عن اليتامى قل إصلاحٌ لهم خير ، وإن تخالطوهم فإخوانكم ، والله يعلم المفسد من المصلح » .
نهى الله عن قربان مالهم الى أن يبلغوا الأشد ويستحكم عقلهم وجسمهم ، ويستطيعوا معرفة الضار والنافع ، وذلك ببلوغهم سن الرشد مع تحقق الرشد . قال الله تبارك وتعالى : « وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغــوا النــكاح فإن آنستم منهم رشدا فادفعوا إليهم أموالهم » .

سابعا — « وأوفوا الـكيل والميزان بالقسط » :

أمر الله تعالى بأن يكون التعامل فى المـكيلات والموزونات بالعدل ، وهو يكون بين طرفين ، فلا يأخذ واحد أكثر من حقه ، ولا ينقصه الآخر حقه .

وقد جاء فى هذا المعنى قول الله تعالى : « ويل للمطففين الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون ، وإذا كالوهم أو وزنوهم يُخسرون » .

فى هذه الوصية والتى قبلها النهى عن أكل أموال الناس بالباطل ، سواء أكانوا راشدين أم غير راشدين . وإذا كان الله تعالى نهى عن حفنة من البر تزيد أو تنقص وأوعد عليها بالويل ، فكيف يكون حال من يحتال لأكل مال اليتامى ؟ وكيف يكون حال من يأخذ الرشوة ليعدل عن الحق ؟ وكيف يكون حال من يستغل عقل الناس من الضعفاء والبلهاء للاستيلاء على أموالهم ؟ أولئك لهم نار جهنم وبئس القرار !

بعد هاتين الوصيتين قال الله تعالى :

« لا نكلف نفسا إلا وسعها » .

ومعنى هذا أنه لمـا كان التحرز التام قد يكون خارجا عن الطوق فى معاملة اليتامى ، وفى الـكيل والوزن ، نبه الله الى أن المطلوب هو ما فى الوسع . فمتى كانت النفس بعد التحرى مطمئنة الى أن مصلحة اليتيم تحققت ، والى أن العدل

وجد فى الكيل والوزن ، كان فى ذلك الخروج عن العهدة ، لأن الله لا يكلف نفسا إلا وسعها وطاقتها .

ثامناً — « وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى » :

طلب الله العدل فى القول . وهو يكون فى الشهادة والحكم ، والنصيحة والمشورة ، وفى التعليم والفتيا ، وفى كل شىء طريقه القول ، ولو كان العدل فى القول ضارا بذوى القربى والصداقة ، بل ولو ترتب عليه ضرر الشخص نفسه « يأيها الذين آمنوا كونوا قوّامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين » « يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ، ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى »

تاسعاً — « وبعهد الله أوفوا » :

طلب الله الوفاء بالعهد ، وهو أنواع : منها العهد بين العبد وربه ، بالتزام أحكامه من أوامر ونواه . وذلك يكون بقبول الدين كله ، والاعتراف به ، والعمل على مقتضاه . فالوفاء بعهد الله هو الطاعة لله ولرسوله . ومنها العهود التى بين الأفراد والجماعات ، سواء أكانت بالقول أم بالكتابة . ومنها العهود التى بين دولة ودولة أخرى . وهنالك عهود ضمنية يحددها العرف والعادة بين الناس ، وتقتضيها حياة الجماعة .

وعلى الجملة فالعهد التزام يجب على المسلم وفاؤه ما لم يكن محرما مناقضا لكتاب الله وسنة رسوله . فاذا كان العهد مناقضا لأحكام الله وجب نقضه . وكل شرط بين المسلمين جائز إلا شرطا أحل حراما أو حرم حلالا . ومثل هذا العهد مناقض للنظام العام ، فلا يكون له احترام .

وقد حث القرآن فى مواضع كثيرة على الوفاء بالعهد . من ذلك قوله : « وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا » . وقوله « وأوفوا بعهد الله إذا

عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا ، إن الله يعلم ماتفعلون » . وقوله « فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ، ومن أوفى بما عاهد عليهُ اللهَ فسيؤتيه أجرا عظيما » .

بعد أن بين الله سبحانه هذه الوصايا الأربع قال :

« ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون » :

أى أنه وصانا بهذا لنتذكر نعمه وما حاطنا به من الأصول النافعة فى الحياة ونظام المجتمع ، ولنتعظ بهذا التذكير فنوجه همتنا الى المحافظة على كل ما فيه خير ومصلحة .

وبعد هذا كله بين الله سبحانه أن ما دعا الخلق اليه من الدين الحنيف والقرآن المطهر الذى اشتمل على قواعد العدل وعلى النظام المصلح للجماعة الانسانية ، هو الصراط المستقيم الذى يجب على الناس اتباعه وسلوكه ، وعدم الخروج عنه الى الطرق المضللة المبعدة عن السعادة ، فقال :

سبيل الحق وسبل الباطل :

« وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله » :

روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه خط خطا بيده ثم قال : هذا سبيل الله مستقيما . ثم خط خطوطا عن يمين ذلك الخط وعن شماله ثم قال : هذه السبل ليس فيها سبيل إلا عليه شيطان يدعو اليه .

وقد أفرد سبيل الله وجمعت السبل الأخرى لأن سبيل الله سبيل الحق ، والحق واحد لاتعدد فيه ، وعلى الناس طلبه . أما الباطل فتتعدد وطرقه متعددة ، لذلك يجب على المسلم دائما أن يتحرى سبيل الله ، وأن يجدّ للوصول الى معرفته وسلوكه ، لا يعفى أحد من ذلك ، وكل مكلف على قدر وسعه وطاقته . والذى يخالف الطريق بعد الجد وبذل ما فى الوسع معذور . وللمخطئ أجر

وللمصيب أجران . أما المسلم الذى يخالف الحق وفى إمكانه البحث عنه فهذا غير معذور ، وقد اتبع الطرق المتفرقة وكان فى إمكانه اتباع الطريق المستقيم .

« ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون » :

معناه أن العمل بهذه الوصايا موصل الى تقوى الله التى هى البعد عن الشرور والمعاصى التى تغضب الله ولا يرضى بها لعباده . ومن الواضح أن هذه الوصية الأخيرة جماع الخيرات والبركات ، والذى يتبعها يتبع النهج القويم والصراط المستقيم . وفقنا الله الى معرفته ، وأعاننا على سلوكه .

والحمد لله أولا وآخرا ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذى بعثه الله رحمة للعالمين !

تنبيه

وقع فى « الاذن بالنشر » س ٨ كلمة : من الخلفاء . والاصل : مع الخلفاء

« ص ٥ س ١٥ الرق وعناية . والاصل : الرقيق وعناية

خطبتان جامعتان

أدى حضرة صاحب الجلالة مولانا الملك الصالح « فاروق الأول » فريضة الجمعة بالأزهر الشريف مرتين :

(أولاهما) فى ١١ شوال من سنة ١٣٥٥ . و (ثانيتهما) فى ١٢ ذى القعدة من سـنة ١٣٥٦ . وهو اليوم الذى أقسم الجيش فى صبيحته يمين الاخلاص والطاعة لجلالته فى ساحة عابدين . وقد حضر جلالته الصلاة فى ذلك اليوم بلباسه العسكرى ، وفى معيته كبار الضباط ورجال الدين والدولة ، فكان يوما مشهودا تجلت فيه بروح جلالته ، فخامة الملك مع روعة الدين ، متعاضدتين متساندتين .

***

وخطب الناس وأمهم فى المرتين إمام المسلمين أستاذنا الأكبر الشيخ المراغى . ولما فى الخطبتين اللتين ألقاهما فضيلته من بيان وهدى وموعظة ، رأينا أن نلحقهما بمجموعة « الدروس الدينية » تعميما للانتفاع بهما ، وليكون منهما المثال الذى يحتذى فى الوعظ والارشاد .

والله يتولى هداية الجميع الى صراطه المستقيم :

الخطبة الاولى

أحمدك اللهم حمد من أخلص النية لوجهك الكريم ، وأشكرك شكر من أطاعك لذاتك وابتغاء رضوانك العميم . وأشهد أن لا إله إلا الله تفرد بالعزة والسلطان ، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله بعثه الله رحمة للانسان . صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله الأطهار ، وصحبه الطيبين الأخيار .

قال الله تعالى : « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا ، يعبدوننى لا يشركون بى شيئا ، ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون » .

هذا وعد الله الصادق ، ولن يخلف الله وعده .

أمور ثلاثة أيها المؤمنون ، هى أسمى ما يتصوره الانسان ، جعلها الله جزاء العمل الصالح المنبعث عن الايمان : استخلاف العاملين فى الأرض ، وتمكين دينهم الذى ارتضاه لهم ، وتبديلهم بعد الخوف أمناً وطمأنينة .

والاستخلاف فى الأرض خلافة عن الله فى عمارة كونه ، وتوزيع العدل والاحسان بين عباده ، وهو يعتمد على القوة وشمول السلطان ونفاذ الكلمة ، وهو مطلب تتفانى الأمم فى سبيله ، وتضحى بأبنائها وأموالها ابتغاء الوصول اليه .

وما استقامت عقيدة ولا استقر سلطان ، ولا وجد مجد وسؤدد ، ولا شعرت أمة بالعزة إلا إذا حمتها القوة وبسطت عليها أجنحتها . وهذه المثل قائمة ، وشواهد الماضى حاضرة فى الذهن ماثلة .

وتمكين الدين والعقيدة نعمة عظيمة ، ومقصد رفيع ، يتبعه استقرار النفوس وراحة الضمائر ، والشعور بالعزة والكرامة . ليس أشهى إلى النفس

ولا أمتع للقلب ولا أهنأ للروح من أن يرى الإنسان أن عقيدته صاحبة السلطان والنفوذ فى نفوس الناس أجمعين .

والأمن بعد الخوف أعز مطلب للفرد والجماعة . وللخوف آثار تفسد العقل وتذهب بالتفكير ، وتجعل العيش مريراً ، والحياة مضطربة . وما أحلى الأمن يستقر بعد الفرق ، وما أعذبه يتدفق بعد القلق ! عندئذ يندفع الإنسان نحو العمل صافى القلب ، متجها إلى الله ، ملتمسا خير العباد .

وليس الإيمان أيها المؤمنون تصورات تتخيلها العقول وتجرى عباراتها على اللسان ، وإنما هو عقيدة تملأ القلب وتتبعها آثارها .

« إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله ، أولئك هم الصادقون » .

ومن آثار العقيدة الدفاع عنها بالنفس ، والاستهانة فى سبيل نشرها بالمال . ومن آثارها العمل الصالح . وليس العمل الصالح مجرد صلاة تؤدى بالحركات ، أو صيام يؤدى بالحرمان من اللذات ، أو ذكر يجرى على اللسان ألفاظاً ميتة خالية من الخشية والرهبة .

إنما العمل الصالح ما اشتمل على روح الاسعاد : من إخلاص لله ، ومحبة لخير الفرد والجماعة ، وأداء الحقوق كاملة لله ، ولعباد الله .

« وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ، وذلك دين القيمة »

إن أعلى العمل الصالح منزلة عند الله فضائل الأخلاق : من الوفاء بالعهد ، والصدق فى القول ، والشجاعة فى الحق ، والصبر على احتمال المكاره ، والعدل مع الأفراد : بأداء حقوقهم ، وحب السعادة لهم ، وإرشادهم الى الخير ، ومعاونتهم فيه .

ومن العمل الصالح إطاعة الفرد لما تفرضه الجماعة وما يفرضه الحاكم ، مما ليس فيه معصية للخالق .

ومن العمل الصالح للحاكم توفيره الخير للرعية ، والدأب والسهر على مصالحها ، وحياطتها من الانزلاق فى الشرور والتهاون فى الدين .

وإن قوام العمل الصالح مهما تعددت شعبه ، العدل ، وهو مطلوب من الحكام ، ومطلوب من الرعية . والعدل هو اتباع السنن الالهية ، والأوامر الدينية ، والنواميس الوضعية التى لا تتناف والدين .

إن الأمة الصالحة التى تستحق الخلافة أيها المؤمنون ، كما يجب أن تقوم على العدل يجب أيضا أن تؤدى للأرض حقها من عمران ، وأن تستخرج ما فيها وما حولها من قوى ومنافع ، لتحقق الارادة الالهية من خلق تلك القوى وتسخيرها لمنفعة الانسان .

« الله الذى خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم ، وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره ، وسخر لكم الانهار ، وسخر لكم الشمس والقمر دائبين ، وسخر لكم الليل والنهار ، وآتاكم من كل ما سألتموه ، وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها » .

عباد الله :

لا تسعد أمة تتفرق أهواؤها وتصبح شيعا وأحزابا رائدها الهوى وقائدها المصالح الخاصة .

لا تسعد أمة لا تعتصم بحبل الله المتين ، ولا تعتبر بسير الذاهبين الأولين .

لا تسعد أمة تحتكم الى الشهوات ، وتتعامى عن الآيات ، وتدع النذر ، وتعمى عن العبر .

لا تسعد أمة تنبذ تعاليم الدين وراءها ظهريا ، وتزدرى بالأخلاق الفاضلة حبا فى الاستمتاع بالشهوات وما فى الحياة من لذات .

لا تسعد أمة ينغمس أمراؤها وأغنياؤها فى الترف ، ويستعذبون الراحة ويأنفون العمل « وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا » .

أيها المؤمنون :

نحن بين أمرين : إما أن نستضيء بنور العقل ونهتدي بهدى الشرع ، فنصير فى الدنيا الى عزة نعلو بها فى أجواز الفضاء ونخترق بها أطباق الأرض ، ثم فى الآخرة الى جنة عرضها السموات والأرض ، الى مغفرة الله ورضوانه .

وإما أن نعمى عن هدى الله ، ونغمض عما حل بالأمم السابقة أعيننا ، ونغلى مراجل الشهوات فيما بيننا ، فتأكل نيران الأحقاد قلوبنا ، فنصير فى الدنيا الى ذلة وضعة ، ثم فى الآخرة الى نار وقودها الناس والحجارة ، الى خزى من الله وخذلان .

« من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموما مدحوراً . ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا » .

وقانا الله عذاب النار وسوء المصير ، وقادنا الى الخير وحسن العاقبة ، وهدانا الى ما يرضيه ويقربنا من عفوه ورحمته !

روى البخارى عن أنس رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

« ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وأن يكره أن يعود فى الكفر كما يكره أن يقذف فى النار » .

الخطبـــة الثانية

الحمد لله العلى القادر ، العزيز القاهر ، الحكيم الذى لا يضل ، الخبير الذى لا ينسى ، سبحانه الكبير المتعال .

نحمده حمدا به نستأهل غفرانه ، ونستمنح عطفه ورضوانه .

ونشهد أن لا إله إلا الله توحد بالربوبية المطلقة ، وتفرد بالجلال والعزة ، وبرأ الخلق بقدرته ، وأمدهم باحسانه ورعايته .

ونصلى أفضل الصلوات وأتمها على أفضل الخلق وأكملهم ، من ختم الرسالة ، وأدى الأمانة ، وجاهد فى الله حق جهاده ، وكان أفضل قدوة لعباده ، سيدنا ومولانا محمد صلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وأصحابه الذين حملوا من بعده علم الهداية ، فدانت لهم الامم ، وخضعت لسلطانهم الرقاب ، وكان فضل الله عليهم عظيما .

أما بعد فيقول الله تعالى : «قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين . يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ، ويخرجهم من الظلمات الى النور باذنه ، ويهديهم الى صراط مستقيم » . ويقول الله تعالى : « من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ، ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون» .

على هذا الأساس شب الاسلام عزيزا لا يعرف الذل ، كريما لا يقبل الضيم ، وحمله كرام بررة رفعوا لواء عزه ، وشيدوا صروح مجده ، وطوفوا به فى الآفاق نافذ السلطان رفيع المكان . ثم خلف من بعدهم خلف فتنوا بعرض الحياة الأدنى ، واتبعوا الشهوات وضلوا السبيل . حسبوا الأمر مغانم تقسم ، وأسلابا توزع ، ودنيا مملوءة بالملذات ، فيها دعة وسكون ، وترف ومجون . وطال عليهم الأمد فى ذلك فقست قلوبهم ، وصرفتهم الاهواء عن الهدى الالهى فساءت حالهم ، وصبروا على الذل واطمأنوا اليه .

تحللوا من أصول الاسلام وفضائله ، وسول لهم الشيطان أن التدين عار ، وأن الصلاة والصوم والعقائد وما شرع الله من أحكام تهذب النفوس وقوانين تنظم الحياة وتسعدها ، ليست إلا بقية من قرون خلت ، لا يليق أن يستمسك بها الرجل المتمدين الذى عرف معنى الحياة وما فيها من لذة ومتعة .

سول لهم الشيطان أن التدين عار ، وأن الخمر والميسر والاسترسال فى الشهوات والانغماس فى الاباحية نوع من الحرية ، وخاصة من خواص المدنية .

سول لهم أن التدين عار ، فتركوا دينهم ، ونبذوا كتابهم ، وانصرفوا عن العمل الصالح ، والخلق الفاضل ، فصاروا نهبا للأمم ، ومثلا للذلة .

توالت عليهم النذر فلم يتدبروا ، وتتابعت أمامهم العبر فلم يعتبروا ، فحقت عليهم الكلمة ، وأذيقوا لباس الجوع والخوف ، وسلط عليهم من لا يخاف الله فيهم « وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغـدا من كل مـكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجـوع والخوف بما كانوا يصنعون » .

بهذا أصبح الإسلام فى ناحية والمسلمون فى ناحية ، وبينهما فجوة بعيدة المدى والأطراف . تركوا دينهم واستباحوا الشهوات ، ومهدوا لمن لا يعرفون الأديان إلا من حالة أهلها أن يقولوا : إن الإسـلام دين لا يعرف العزة والكرامة ، ولا يميز بين الفضيلة والرذيلة ، فهو دين يبيح الميسر والبغاء والخمر ، ولأهله فى ذلك قوانين تنظمها وجرائد ومجلات تعلن عنها . دين يبيح الكذب والزور ، والرشوة والفجور ، والفوضى فى النظام ، والجور فى الأحكام . دين يتفنن فى الكيد والنفاق ، وأساليب التفريق والشقاق ، والبغى والعناد ، والإثم والالحاد .

بهذا ونحوه من الآثام والرذائل التى صارت بين المسلمين معروفة مألوفة ، وهى عند العقلاء وفى دين الإسلام منكرة مبغوضة ، يصور الإسلام أخـذا من حالة جمهور يدين بالإسلام ، وحكومة دينها بنص دستورها الإسلام .

أليس هذا أيها المسلمون جناية من المسلمين على الإسلام ؟ أليس هذا تناقضا لا يجمل بالعقلاء أن يصبروا عليه ، ولا يحسن بأمة تريد الحياة مرفوعة الرأس أن تسكن إليه ؟

«إن هى إلا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدى من تشاء ، أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين » .

« ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ، ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون » !

أيها المسلمون ! اسمعوا فى دينكم قول الله الحق وقول رسوله الكريم ،

يقول الله تعالى : « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما » . ويقول : « وإذا قيل لهم تعالوا الى ما أنزل الله والى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدودا» .

يقرر القرآن نفى الايمان عمن لم يرض بأحكام الله رضا يزيل الحرج عن صدره ويملأ قلبه استسلاما وطمأنينة . ويصف بالنفاق من يصد عن الداعى الى الله ورسول الله .

ويقول فى آية أخرى : « قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق ؟ قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة ، كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون . قل إنما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، والاثم والبغى بغير الحق ، وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا ، وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون » .

إن الدين أيها المسلمون مهما امتدت آفاقه وتأول فيه المتأولون ، فهو لا يحتمل هذه البوائق ، ولا هذا الالحاد ، ولا هذه الاباحية الجامحة ، ولا هذه الشهوات التى لا تقف عند حد . وإنما يحتمل مدنية فاضلة تقوم على علم كامل ، وعمل صالح ، وخلق فاضل كريم . يحتمل التمتع بزينة الله وما هيأ لعباده من طيبات ، يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث .

هذا هو الاسلام أيها المؤمنون . فسارعوا الى مغفرة من ربكم ، وأنقذوا الناس من أسباب الدمار والتهلكة . واعلموا أن الله أهلك الأمم الغابرة لأقل من هذه الشرور والآثام .

خطوا للفضيلة طريقا واضحا ، وضعوا لها نهجا مستقيما ، وقوموا على حراسته كما أمر الله بالعدل وقوة السلطان . إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم . وكان حقا علينا نصر المؤمنين .

أيها المسلمون ! إن الله وضع قواعد الحكم الصالح فى هذه الآيات البينة الواضحة : « إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات الى أهلها ، وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل، إن الله نعما يعظكم به، إن الله كان سميعا بصيرا . يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ، فان تنازعتم فى شيء فردوه الى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر، ذلك خير وأحسن تأويلا »

والأمانة ما تجب المحافظة عليه . فالسر أمانة ، والتكاليف الشرعية أمانة ، وعلم العالم أمانة ، وقول الحق فى الشهادة وغيرها أمانة ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر أمانة ، والعدل فى الأحكام والأفعال والأقوال أمانة .

كتاب الله قانون ، وسنة رسوله قانون ، وما اتفق عليه أهل الحل والعقد من المسلمين مما لا يخالف نصا فى الكتاب ولا فى السنة قانون ، والرد عند التنازع الى قواعد الدين العامة وأحكامه الكلية قانون . وكل هذه القوانين أمانة استودعكم الله إياها ، واستحفظكم عليها ، وأنزل عليكم فى محكم كتابه : « يأيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون » .

أيها المسلمون ! اسمعوا أدب نبيكم الكريم لأصحابه وأمته :

« شر ما فى الرجل شح هالع وجبن خالع — لن تزول قدم شاهد الزور حتى يوجب الله له النار ، ومن كتم شهادة دعى إليها كان كمن شهد الزور .

« الدين النصيحة . قلنا لمن يارسول الله ؟ قال : لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم — المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره ، التقوى ها هنا (يشير الى صدره) كل المسلم على المسلم حرام : دمه ، وماله ، وعرضه .

« من ولى من أمر المسلمين شيئا فأمّر عليهم أحدا بمحاباة فعليه لعنة الله ، لا يقبل الله منه صرفا ولا عدلا حتى يدخله النار .

« اتقوا الظلم فان الظلم ظلمات يوم القيامة ، واتقوا الشح فان الشح أهلك من قبلكم ، حملهم على أن يسفكوا دماءهم ويستحلوا محارمهم ، وإياكم والخيانة فانها بئست البطانة .

« من التمس رضا الله بسخط الناس كفاه الله مؤنة الناس ، ومن التمس رضا الناس بسخط الله وكله الله الى الناس .

« اتقوا دعوة المظلوم فانه ليس بينها وبين الله حجاب » .

وفقنى الله وإياكم الى التمسك بدينه ، والعمل على مرضاته ، والتخلق بأخلاق نبيه الكريم !

ومن دلائل التوفيق وحسن القبول أن تم طبع هذه المجموعة القيمة ليلة الخميس ١٨ ذى القعدة سنة ١٣٥٦ ، وهى أول ليلة من ليالى المهرجانات التى أقامتها البلاد ابتهاجا بالزفاف الملكى المبارك .

نسأل الله أن يجعله قرانا ميمونا لصاحبي الجلالة الملكية ، وفاتحة عهد سعيد للدين والدولة — آمين ؟